كلام من هنا وهناك

تأليف

د. عماد رمضان القيصرلي

الطبعة الأولى

٢٠٢٣ م

دار المعارف

تأسست ١٨٩٠

رئيس مجلس الإدارة

سعيد عبده مصطفى

كتب ثقافية

تصميم الغلاف:

دعاء عبد الواحد

تم التنفيذ بمركز زايد للنشر الإلكتروني بدار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة – جمهورية مصر العربية

القيصرلى، عماد رمضان.

كلام من هنا وهناك / تأليف: عماد رمضان القيصرلى.

ط 1 – القاهرة: دار المعارف، 2022.

160 ص، 24 سم.

تدمك 2 9310 02 977 978

1 – مصر – الأحوال السياسية.

2 – مصر – الأحوال الاقتصادية.

(أ) العنوان.

تصنيف ديوى: 320.962

رقم الإيداع: 25013/ 2022

رقم أمر التشغيل: 48/ 2022 /1

رقم الكونجرس: 9 – 841506 – 01 – 2

لا يجوز استنساخ أى جزء من هذا الكتاب بأى طريقة كانت إلا بعد الحصول على تصريح كتابى من دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.

هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ – فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

إهداء إلى

من أفنوا حياتهم
فداءً للوطن

بسم الله الرحمن الرحيم

كلام من هنا وهناك

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

إن الله تعالى خلق سائر البشر لإعمار الأرض بالعمل والعلم، وأرسل الله تعالى الأنبياء لهداية البشرية بأنوار الكتب السماوية، وأنزل الله عز وجل القرآن الكريم على عبده ورسوله محمد ﷺ، وبدأه بقوله تعالى ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥ ﴾ [العلق ١ – ٥].

والموضوعات المستهدفة في هذا الكتاب ليست مقصودة قدر ما هي مهمة، تستدعي الذاكرة، وتسترعى الانتباه لما لها من مصداقية، وقد تختلف مع الكثيرين إلا أنها لا تتوارى عن الحقيقة، والسؤال: هل هي مجرد امتلاء الصفحات بالكتابة لتترجم الواقع؟ من الممكن أن تكون أقرب للواقع، كثيرٌ من الأشياء تتمهل عند ظهورها، ثم ما تلبث أن تختفي فيحاول القلم استعادتها مرة أخرى، بوافر من الثقة ويحصل على مفاتيح الرضا.

هذا هو كلام من هنا وهناك، يحمل معانٍ كثيرة، يحمل مشاعر وأحاسيس، يصارع الماضي والحاضر، يخطو بثبات ينفصل ولا ينفصل، يرحل ويرحل ويعود أقرب مما كان، أو مختلف كأنه لحن جديد، نغماته تختلف عن سابقه، ويؤكد على عمق معاني الكلمات.

لا يوجد شخص يماثل الآخر، فكل إنسان مختلف عن الآخر ليس في الشكل فقط، بل اختلاف وراثي ووجداني وثقافي، وهذا الاختلاف والتنوع بين البشر يمنح التفرد لكل شخص إلا أن عدم فهم بعض الناس للأشياء، ولأنفسهم أحياناً، وكذا الفشل في اتحاذ قراراتهم أحياناً أخرى، يؤدي إلى الكوارث والأزمات، ويحتوي بين طيَّات صفحات هذا الكتاب موضوعات موجزة متنوعة منها السياسية والاجتماعية والتاريخية والوطنية، وأخرى ربما تكون أقرب إلى الرواية، حتى لا ننسى الواقع ماضيه وحاضره.

فالأوراق التالية التي مُلِئَتْ بحبر الأقلام تسجل هذه الموضوعات التي تتمثل في، «بلاد السودان» (كانت وذهبت) التي كانت قائمة منذ عهد المصريين القدماء، وقد تمكن محمد علي باشا من تحقيقها، واستمرت تلك الوحدة بين مصر والسودان حتى نهاية عهد الملك فاروق الذي لُقب بملك مصر والسودان، ثم هيمنت على بعض الحكام فكرة الانفصال، أي انفصال مصر عن السودان، رغم تمسك شعبيهما بالوحدة، والسؤال: من المتسبب في تفكيك وحدة وادي النيل؟

وموضوع آخر تحت عنوان «عالم لا يُنسى» الذي يتناول بعضًا من سيرة العالم والمفكر «عبد الوهاب المسيري» صاحب موسَوعة اليهود واليهودية والصهيونية أحد أكبر الأعمال العربية في القرن العشرين، والذي استطاع من خلالها إعطاء نظرة جديدة موضوعية للظاهرة اليهودية بشكل خاص، وتجربة الحداثة الغربية بشكل عام، مستخدماً ما طوَّره أثناء حياته الأكاديمية من تطوير مفهوم النماذج التفسيرية، ويعتبر واحداً من أبرز المؤرخين العالميين المتخصصين في الحركة الصهيوينة، لذا توصل إلى أن الطبيعة الوظيفية لإسرائيل ليست طبيعية فطرية بل تعني أنها من صنع الاستعمار لتقوم بوظيفة معينة، فهي المشروع الصهيوني الاستعماري الذي ليس له علاقة باليهودية.

كما نشير إلى موضوع بسيط لكنه على قدر كبير من الأهمية ألا وهو «المرأة الريفية» التي اختفى دورها بتحول الريف المصري ديموجرافياً، والذي لم يتبقَّ منه سوى أراضٍ خاوية تشغلها مبانٍ أسمنتية، لذا تبدلت أحوال المرأة الريفية التي كانت تشارك في عمليةً الإنتاج والتنمية، وكان مجهودها ينصب على سوق العمل، فكانت تلبي احتياجاتها وأسرتها فضلاً عن أن المجتمع يتمتع بخدماتها وتخصصها.

ونتناول موضوع تحت عنوان «كان جار لنا» يؤكد على أن حرب أكتوبر ستظل معركة العزة والكرامة والبناء التي ضرب أبطالها أروع الأمثلة في الإخلاص والتضحية، والتي أثبتت أن مصر صخرة صلبة تنكسر عليها كل أحلام الطغاة والمستعمرين، وأن جيشنا العظيم كان ولا يزال الدرع الواقي والحارس الأمين لمصر في السلم والحرب، ونشير هنا إلى بطل من أبطال حرب أكتوبر الذي استشهد في ثالث أيام الحرب، بعد إصابته بشظية في صدره، وكانت آخر كلماته قوله لأحد أفراد جنده، «مصر أمانة بين أيديكم»، وقد استشهد بعد أن قاد جنوده إلى تدمير ٦٣ دبابة إسرائيلية.

ويتناول الكتاب أيضاً موضوع «الجردل وعربة الفول» وفي الحقيقة هذا الموضوع هو تركيبة اجتماعية اقتصادية ثقافية بيئية وسياسية، تركيبة مُعقَّدة نسبياً، فصار لا غنى عنها للطبقة الدنيا وما تبقَّى من الطبقة المتوسطة، كانت في بدايتها عبارة عن حامل خشب فقط، ثم تطورت حتى ظهورها في بيئات جديدة، وكل صاحب عربة يقوم بالاستيلاء على جانب من الرصيف بل والشارع أيضاً، مؤمناً بأنَّ المساحة التي يشغلها صارت ملكاً له، أما الجردل فهو الإشكالية التي لا مفر منها، فيتم غسيل الأطباق فيه التي تستمر مياهه ولا تتغير حتى انتهاء العمل.

ونتذكر سوياً في هذا الكتاب ما قامت به الدولة الافتراضية الصهيونية لبعض جرائمها «فلا ننسى اليوم الأسود»، يوم الثامن من شهر أبريل من العام ١٩٧٠م قامت القوات الجوية الصهيونية بقصف مدرسة بحر البقر بمحافظة الشرقية في مصر ونتج عن هذا الاعتداء استشهاد ثلاثين تلميذاً وإصابة خمسين آخرين، ولا ننسى مذبحة قانا الأولى، في الثامن عشر من شهر أبريل من العام ١٩٩٦م حينما قام الصهاينة بقصف المقر (مركز القوات الدولية في جنوب لبنان) الذي لجأ إليه المدنيون اللبنانيون في قرية قانا بجنوب لبنان عند هروبهم من عملية عناقيد الغضب التي شنها الصهاينة على لبنان، ونتج عن ذلك قتل أكثر من مئة من الأطفال والنساء والشيوخ، فضلاً عن الإصابات التي اتسمت بالخطورة الشديدة، وها هم الصهاينة الأشرار يكررون مذبحة قانا للمرة الثانية بعد عشر سنوات من المذبحة الأولى، في ٣٠ يوليه من العام ٢٠٠٦م قاموا بقصف مبنى سكني مكون من ثلاثه طوابق راح ضحيته نحو خمسة وخمسين شهيداً من بينهم سبعة وعشرون طفلاً، الذين لجؤوا إلى بلدة قانا بعد أن نزحوا من قرى مجاورة تتعرض للعدوان والقصف الإسرائيلي، ما سبق يؤكد على مدى ضعف الكيان الصهيوني مهما امتلك من أسلحة متطورة، فالخوف والرعب يتملك قلوبهم.

كما نتناول موضوع «رحلوا فداء للوطن» يؤكد على تضحيات محمد علي باشا من أجل تقدم ورقي مصرنا الغالية، منذ أن تولى «محمد علي» حكم مصر وهو يضع نصب عينيه الدولة الحديثة، فشرع في بنائها، وكان حبه الشديد لمصر قد جعله مصرياً مدافعاً عن البلاد مضحياً بكل غال ونفيس من أجل وطنه وشعبه، فلم يتوانَ عن بذل الجهد والعطاء لرقي البلاد، حتى أبناؤه الذين خاضوا المعارك وضحوا بأنفسهم، ورحلوا فداءً للوطن، الأمير أحمد طوسون بن محمد علي باشا الذي توفي بعد حروبه في شبه الجزيرة العربية، وكذا الأمير «إسماعيل كامل» الذي قُتل عند فتوحات السودان.

ويتناول الكتاب أيضاً التحام رجالات الشرطة مع الفدائيين الذين سطروا ملحمة تاريخية في ٢٥ يناير ١٩٥٢م عندما رفضوا الاستسلام واستمروا في مقاومتهم ضد الاحتلال الإنجليزي عندما حاصروا مبنى محافظة الإسماعيلية حتى نفاذ ذخيرتهم، وأثبتوا ليس للإنجليز فحسب بل للعالم بأسره، أن القوي هو الذي لا يفرط في تراب وطنه، مما دفع الجنرال «إكسهام» أن يأمر جنود فصيلة بريطانية بأداء التحية العسكرية لطابور رجال الشرطة المصريين عند خروجهم من دار المحافظة ومرورهم أمامهم تكريماً لهم وتقديراً لشجاعتهم وتفانيهم لوطنهم.

كما يتناول الكتاب المجاعة العظمى في الهند إبان الاحتلال البريطاني على الرغم من أن المجاعة قد حدثت في وقت مبكر من العام ١٧٧٠م، تابع الحكام الاستعماريون تجاهل أي تحذيرات جاءت في طريقهم فيما يتعلق بالمجاعة، وبدأت الوفيات منذ العام ١٧٧١م، حتى أصبحت الشوارع مزدحمة بالجثامين من أطفال ونساء وشباب وشيوخ، وامتدت المجاعة حتى العام ١٧٧٣م، وأسفرت عن مقتل ما يقرب من ١٠ ملايين شخص، كما أنها تجاوزت نظيرتها فيما جرى خلال الهولوكوست (الكارثة) الإبادة الجماعية التي وقعت خلال الحرب الكونية الثانية، وقُتِل فيها ما يقرب من ستة ملايين يهودي أوروبي على يد النظام النازي لأدولف هتلر والمتعاونين معه، وخلفت هذه المجاعة دماراً طال ثلث سكان البنغال، أن هذه المجاعة أشد فتكاً بكثير من الطاعون الأسود الذي اجتاح القارة الأوروبية فيما بين عامي ١٣٤٧ – ١٣٥٢م خلال القرن الرابع عشر الميلادي، وتسبب في موت ما يقرب من ثلث سكان القارة العجوز، إلى أن تأتي الهيمنة الاقتصادية على الهند، فيغيب الضمير الإنساني عن الاستعمار البريطاني الذي عمل على تجويع سكانها.

ويتناول الكتاب أيضاً موقف مصر إزاء الاعتداءات الوحشية والجرائم التي ترتكب ضد الفلسطنيين من قبل عصابة الصهاينة، فقد خاضت مصر وهي قلب الأمة العربية الحرب بجيشها العظيم ضد الميلشيات اليهودية المسلحة، وحقق الجيش المصري انتصارات عظيمة، وفرض مجلس الأمن هدنة، وكانت الميلشيات اليهودية تنقضها، ثم تمكنوا بالمساعدة الأمريكية من الاستيلاء على فلسطين ما عدا الضفة الغربية وقطاع غزة والقدس القديم وبيت لحم، تُرى أيهما أفضل: أن يقف الملك فاروق موقف المتفرج، أم يخوض المعركة وينال شرف المحاولة؟، وهناك فارق كبير بين الزعماء المصريين تجاه

الاعتداءات على غزة سواء بالسلب أو الإيجاب، وعندما قامت إسرائيل بالاعتداء على غزة في مايو ٢٠٢١م، لم يستطع أحد من زعماء العالم أن يمنع تلك الاعتداءات الصهيونية على غزة إلا الرئيس عبد الفتاح السيسي، عندما دعا لوقف العنف وحقن الدماء من أجل عودة الاستقرار لقطاع غزة والأراضي الفلسطينية، ومنطقة الشرق الأوسط، لقد أشاد خبراء ومراقبون بجهود مصر لإنهاء الحرب، واعتبروها امتداداً لدورها التاريخي والقيادي في تبني القضية الفلسطينية ورعاية وحماية الشعب الفلسطيني.

كما يتناول الكتاب ظاهرة سُكنَى المقابر، فمن المعروف أن المقابر لها أصحابها الذين انتقلوا إليها للحياة الأبدية، فهي أمكنة لهم ليست لغيرهم، فهي مرقدهم وليست مدن ومساكن خالية، نعم هناك العديد من المشكلات التي يواجهها الإنسان متى حيا، ومنها مشكلة الإسكان التي يعاني منها الآلاف من سكان المعمورة، وخاصة في الدول النامية والفقيرة، وهي من أخطر المشكلات التي يواجهها بنو البشر، وتكمن خطورتها في ظهور العشوائيات، والبطالة، والتسول، والجريمة، وتعاطي المخدرات، وزيادة نسبة الأمية، وتشغيل الأحداث، وتلوث البيئة، وغيرها من المشكلات التي تدفع معاناة الدول النامية والفقيرة لأعلى المستويات، ويسكن أكثر من مائتي مليون شخص في النطاقات الفقيرة التي تحيط بالمدن الكبرى في الدول النامية، حيث يعاني هؤلاء من ظروف معيشية بالغة الصعوبة، كما يعانون من الفقر الشديد ويتعرضون لسوء التغذية ونقص الخدمات والمرافق الأساسية، ويعيشون في الأكواخ ومدن الصفيح والكرتون وفي مناطق أخرى وضعوا أيديهم عليها بصفة غير شرعية فيتكدسون في أزقة موحلة تقوم على جوانبها أكواخ مبنية ومسقوفة بمواد مجمعة من هنا وهناك وطموح لا يتجاوز توفير الحد الأدنى من الغذاء لأناس يتضورون جوعاً، والاحتماء من مطاردات رجال الأمن المتوقعة في كل حين، وكسب العيش يوماً بيوم، ورغم أن المظهر العام والأصول التاريخية تتغاير بين المدن الضائعة التي يطلق عليها مدن الفقراء، مثل مدينة مكسيكو سيتي في المكسيك، ومدينة كلكتا في الهند، والأكواخ المنتشرة من الصفيح والأخشاب في ضواحي القاهرة، فضلاً عن ظاهرة سُكنَى المقابر التي تنفرد بها مصر.

[illegible]

بالأنوار الغازية والكشف عن منازل القاهرة لسلامة الناس، وفي عام ١٨٣٢م أصدر محمد علي أوامره بضرورة كنس ورش الشوارع وتنظيف الأسواق وإنارة شوارع المدينة، وإيقاد القناديل على أبواب المنازل، وأن يخصص لكل ثلاثة حوانيت قنديل، وعلى ذلك فإن الثقافة تنير الحياة، وتبصر للحاضر والمستقبل، وترتقي بالمجتمع وأبنائه.

نسأل الله عز وجل التوفيق والسداد

المؤلف/ عماد القيصرلي

بلاد السودان

(كانت وذهبت)

المقارنة بين السودان ما قبل محمد علي وإسماعيل، وبين السودان في عهديهما، مثلما قارن الإمام «محمد عبده» عندما كان طالباً في الأزهر، وكتب في جريدة الأهرام اليومي، قائلاً فيها: (يا لها من جريدة أرست قواعدها في القلوب وامتدت لتكشف الغيوب . والفارق كبير بين أهرام خوفو وأهرام الصحافة. تلك أهرام وأشباح، وهذه غذاء للأرواح.. تلك مساكن وأموات وهذه لسان السموات)، فالأهرامات صامتة يسكنها الأموات، ونلتقي معها للمشاهدة وشدة الإعجاب والانبهار، إلا أن صحافة الأهرام تعطينا الحياة والمعرفة وننتظرها يوماً بعد يوم.

فقد كانت السودان أراض أحراش ومستنقعات، وشعب عائم على التخلف والنوم في سبات عميق، لا يتحرك ولا يعمل كأهرامات الفراعنة، إلى أن جاء الحكم المصري بدايةً من عهد محمد علي باشا وانتهاءً بعهد الملك فاروق الأول، فنبض السودان كعودة نبضات القلب المتوقف، خطى خطوات واسعة؛ لذا نقل محمد علي السودان نقلة حضارية في جميع مناحي الحياة، وأرسى أسس ومبادئ التعليم فيها، هذا بالإضافة إلى أروع وأهم الأهداف التي تحققت ألا وهي وحدة وادي النيل، فالسودان الامتداد الطبيعي لجنوب مصر، (المجال الحيوي الجنوبي لمصر)، والسؤال المهم: هل كان ضم محمد علي للسودان استعماراً؟

جاء من البعيد القريب فبعث الوحدة والنهضة في أرض مصر وامتد إلى السودان، وبعد أن وصل أبناء النيل إلى مشارف خط الاستواء امتدت يد الاستعمار إلى الشرق من جديد، وسقطت مصر والسودان في يد الاستعمار مرة أخرى، وانقطع حبل الحياة بين الشمال والجنوب، وتراجعت الحضارة والثقافة، فكانت القطيعة بين مصر والسودان، ودخل الجنوب في حالة من الفوضى بالرغم من الربط المظهري بين مصر والسودان الذي يخلو من الروابط الحقيقية الحضارية والتاريخية والجغرافية.

الشبه كبير بين الوحدة التي سعى إليها محمد علي، ووحدة القطرين الشمالي والجنوبي على يد «نارمر» ففكرة الوحدة بين مصر والسودان أو «وحدة وادي النيل»

تمثل في العصر الحديث تحقيق الرخاء الاقتصادي والأمن القومي والنهوض بأراض لم تكن تعرف من قبل كيفية استثمار مواردها، انتقال شعب إلى العلم والعمل والبناء والتشييد والعمران، وكذا التنظيم والإدارة، هذا ما حققه محمد علي باشا، كأن لسان حاله يقول: (لو كان لي قلبان لعشت بواحد في مصر وتركت الثاني في السودان)، فإذا كانت الطبيعة والجغرافيا منحت السودان الامتداد الطبيعي لمصر، وإذا تناقل التاريخ بين طيات أوراقه وأثبت التواصل بين مصر والسودان اقتصادياً وعسكرياً وتجارياً وعمرانياً وفنياً، منذ أيام قدماء المصريين، فإن «محمد علي» أحيا ما كان ساكناً، أعاد كتابة التاريخ للوادي الجنوبي، وتراوحت الشعارات مثل «مصر والسودان لنا» و «عاشت وحدة وادي النيل» و «إذا غابت الشمس لا تغيب وحدة وادي النيل» و «خصوصية العلاقة» ويظهر مشروع التكامل بين مصر والسودان في زمن «السادات»، وتصريحات «عمر البشير»، التي أعلن فيها أنه لن يقبل سقفاً للعلاقات مع مصر أقل من الوحدة، ورغم تاريخية العلاقات والروابط التي تصل في عمقها إلى فجر التاريخ، إلا أن وحدة حقيقية لم تتحقق على مدى نحو أربعة آلاف عام من العلاقات بين القطرين الشقيقين، إلا في العصر الحديث ومع بدايات القرن التاسع عشر عندما منح محمد علي الفرصة لتحقيق هذه الوحدة، وتعليم السودانيين واستغلال الموارد الطبيعية من تربة زراعية ومعادن، ونقل السودان نقلة نوعية في جميع مناحي الحياة، كما نقل مصر من قبل فأصبح السودان من دولة حبيسة الظلام إلى دولة ساطعة النور، وصارت جزءًا لا يتجزأ من مصر وكذا توثيق الضمانة لمصر من أجل حماية عمق أمنها القومي جنوباً كما يحقق للسودان حماية أمنها القومي شمالاً، وكما ذكر سلفاً تحقق الرخاء الاقتصادي مدعوما بالأمن على المستوى القريب والبعيد من خلال النسيج الوطني الواحد.

كل الشواهد والأعمال التي قام بها «محمد علي» في السودان تثبت جهوده المضنية في إعمار هذه البلاد، كما عمل على تعليم أهلها لحسن استغلال ثرواتها، فكانت وحدة قائمة على الامتداد الطبيعي، تتمتع بنهر النيل الذي حبا الله عز وجل تلك البلاد به.

موقف أهل السودان من وحدة وادي النيل منذ عام ١٨٢٠م حتى عام ١٩٥٢م:

لم تنفصل الأراضي السودانية عن مصر ما قبل عام ١٩٥٢م إلا من عام ١٨٨٥م إلى ١٨٩٨م، عندما قامت الدولة المهدية في السودان، لكن سرعان ما انتهت هذه الدولة

على أيدي القوات البريطانية التي دخلت السودان، فعادت مرة أخرى إلى مصر ولكن بمشاركة بريطانيا التي كانت تحتل مصر وتدير أمورها حينذاك، وهو ما عُرف باتفاقية الحكم الثنائي ١٨٩٩م، والتي رفعت العلمين المصري والبريطاني معاً على الأراضي السودانية، ثم قام الوفد برئاسة «مصطفى النحاس» في الثامن من أكتوبر عام ١٩٥١م بإلغاء معاهدة ١٩٣٦م وإلغاء اتفاقية الحكم الثنائي في السودان ١٨٩٩م وردا على ذلك من الجانب البريطاني بعث إيدن وزير خارجية بريطانيا في ٢٢ أكتوبر عام ١٩٥١م إلى حاكم السودان ليعلن نظام الحكم الذاتي للسودان رداً على قرار مصر، ومع التغيرات الدولية ومواقف بريطانيا من وحدة وادي النيل التي تنم عن عدم مصالحة بريطانيا مع نفسها، بل كل ما يسطر من اتفاقيات وكل الاتجاهات البريطانية ما هي إلا لصالح بريطانيا، وهذا ليس بغريب على أكبر دولة استعمارية في العالم، ثم وصولنا بإعلان فاروق الأول في عام ١٩٥١م ملكاً على مصر والسودان وبالتأكيد مع معارضة بريطانية.

وحدة وادي النيل لا تسقطه العثرات:

دائماً وأبدًا الشعوب هي التي تضرب أروع الأمثلة للكفاح وتقديم البطولات والتضحيات فداءً لأوطانها، والملاحم الشعبية التي شهدها الكوكب على مر العصور، فها هو شعب وادي النيل يبارك الوحدة بل ينشدها، ولمَ لا؟ فهو الذي تعطر بماء النيل، وما أروع استقبال السودانيين لإخوانهم المصريين منَذ عهد محمد علي، لذا كانت العلاقات على الصعيد الشعبي أكثر دفئاً وودا تدعمها المصاهرة والتواصل والمصالح المشتركة التي يعيها المثقفون في البلدين لترسيخ هذه الوحدة وأهميتها وضرورتها لحماية مصالح كل وادي النيل والدفاع عنه ككيان واحد ضد الأطماع الخارجية، ولا ننسى موقف الشعب السوداني عند توقيع معاهدة ١٩٣٦م بين مصر وبريطانيا ومطالبته باستمرار وحدة وادي النيل فلا مساس لها، هذه النظرة كانت حتى وقع على الوحدة من تفكك وانفصال ما كان في خاطر المصريين والسودانيين معاً، فكان تحول الوحدة من الاستقامة إلى الاعوجاج من الرغبة إلى اللا رغبة وتتبدل من الطبيعة إلى الأسلاك الحدودية الزائفة بهيمنة استعمارية ورغبة غربية لنيل تفكك الوحدة ورغم ذلك خرجت لجنة عطبرة وقتئذ بعدم التفريط في الوحدة والتمسك بها بين مصر والسودان.

«محمد علي» امتلك مفاتيح التحديث لمصر والسودان:

وقد اعتبر مالك مفاتيح التحديث في مصر، محمد علي باشا صاحب النهضة الشاملة، السودان امتداداً جنوبياً لمصر، وكذا حفيده الخديوي «إسماعيل» الذي سار على نهج سياسة جده محمد علي، واستمر البلدان كتلة وطنية متماسكة حتى نهاية عهد الملك فاروق. وانتقال السودانيين من أراضيهم إلى مصر لا يُعد هجرة أو انتقال إلى دولة أخرى؛ لأن ذلك من مُسلَّمات حياتهم ألا وهي وحدة وادي النيل الفرض الحتمي لانصهار الشعبين بعضهما ببعض، نتيجة للعوامل التاريخية والطبيعية والجغرافية والاقتصادية والاجتماعية.

الهجرة إلى الشمال للعلم والثقافة والعمل:

في وقتنا المعاصر، ماذا يرى الشعب السوداني بالنسبة لمصر؟ عندما يريد الانتقال والبعد عن الليبرالية الرأسمالية أو الاشتراكية الماركسية أو حتى البعد عن الحاجة والفقر فينتقل إلى الشمال الذي هو بالنسبة للسودانيين مصر التي يعتبرها الامتداد الطبيعي الشمالي للسودان، ونود أن نشير إلى رواية الأديب السوداني «الطيب صالح» رحمه الله، والتي كانت بعنوان (موسم الهجرة إلى الشمال)، حيث العلم والثقافة وفرص العمل، والسودانيون في وقتنا الراهن هم أكبر جالية في مصر، أكثر من جنسيات أخرى في مصر كالفلسطينيين والسوريين، بلدان يربطهما تاريخ مشترك، والنيل، بينهما رابط جغرافي وتاريخي، وعلاقات تجارية اقتصادية، وعسكرية منذ أيام الفراعنة بل منذ أجداد الفراعنة.

شعب يحب سريعاً، وينسى من أحبهم سريعاً:

وتأتي الجمهورية المصرية ويصبح في ظلها اللواء «محمد نجيب» أول رئيس للجمهورية بعد تحول النظام الملكي إلى جمهوري في ١٨ يونيو ١٩٥٣م، كان ميلاده في السودان من أب مصري وأم سودانية مصرية، إلا أنه رغم قصر فترة حكمه فقد أحبه الشعب المصري السوداني (شعبٌ يحب سريعاً، وينسى من أحبهم سريعاً)، لذا يعتقد البعض أن انفصال السودان عن مصر جاء نتيجة إطاحة «جمال عبد الناصر» باللواء «محمد نجيب» الذي ارتبط السودانيون به واعتبروه حلقة الوصل بين المصريين والسودانيين.

فكر عبد الناصر... ذهب إلى سلخ الشاة وفصل جلدها عن لحمها:

قامت فلسفة عبد الناصر على وحدة تجمع بلدين ليس بلداً واحداً كما أرادها، لا نزاعاً حدودياً يفرق بينهما، فهل حقق عبد الناصر وحدة شعبين؟، لقد كان المردود مخيباً للآمال، مردوداً عكسياً، بدلاً من تحقيق الوحدة الشعبية تم انفصال الجنوب عن الشمال، كأنه سلخ شاة ففصل جلدها عن لحمها.

ولعل أيديولوجية السودانيين قائمة على تمسكهم بوحدة وادي النيل، لعدم وقوعهم في دائرة التيارات الأيديولوجية جميعها إلى الصراع على السلطة، وترك مشاريع التنمية التي لا تنقصها الموارد طبيعية كانت أم بشرية، ومن الخطورة التحول من عجلة الإنتاج والنشاط البشري إلى الركود والانخراط داخل السلبية والدوران في دوامة الاتكالية ورفع شعار لا للعمل.

وقد تكون هناك حلول اقتصادية وسياسية معاً، بإعداد مشاريع تنموية والعودة إلى وحدة وادي النيل، التي من أجلها حارب محمد علي، فالنيل لا ينقسم بين شمال وجنوب، فوحدة وادي النيل هي طريق السودان نحو التقدم.

يقول الله سبحانه وتعالى ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [هود: ٦١]:

إن الله سبحانه وتعالى لم يقل إنه عمر الأرض لبني البشر، بل إنه سبحانه خلق هذا الكون وأودع فيه الثروات والخيرات والإمكانات، ثم فوض إلى الإنسان أن يستغل هذه الثروات والإمكانات من أجل إعمار الأرض، وهناك العديد من الآيات الكريمة في القرآن الكريم، تتحدث عن مهمة أساسية للإنسان في هذه الحياة، وهي مهمة إعمار الأرض، واستثمار الخيرات التي أودعها الله سبحانه وتعالى في هذا الكون، فالإنسان مخلوق من تراب الأرض، أما لماذا أنشأنا الله منها؟ وما هي مهمتنا في هذا الوجود؟ الله تعالى يقول: ﴿ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾، يشير المفسرون، أن المعنى «طلب الله عز وجل من بني البشر عمارة الأرض»، أي أن «تعمروها».

نهاية الملكية وضياع السودان

المشهد الختامي وإسدال الستار على محاولات فصل السودان عن مصر قبل ٢٣ يوليو ١٩٥٢م، وقد واجه تلك المحاولات رفض شعبي مصري سوداني، لفصل السودان عن

مصر ما قبل عام ١٩٥٢م، ورغم الظروف السياسية التي مرت بمصر كأنها أمواج بحار عالية شديدة الخطورة إلا أن السودان كان هو بمثابة الصخرة التي تصد تلك الأمواج العاتية، وتتحطم عليها دائماً المفاوضات المصرية البريطانية، كانت النظرة التي توارثتها الحكومات المصرية المتعاقبة حتى عام ١٩٥٢م أن السودان جزء لا يتجزأ من مصر، فقد كان هناك فهم واع للأمن القومي المصري، وأن السودان يمثل العمق الاستراتيجي لمصر، وكانت بعض الحكومات الموالية للاحتلال تُجبر على تقديم بعض التنازلات الخاصة بالسودان، إلا أنه كان هناك خطوط حمراء لهذه التنازلات فكانت تصل إلى حد معين ومن ثم تتوقف وتفشل، ومن خلال متابعة أحداث تاريخ مصر في الفترة من ١٨٨٢م حتى ١٩٥٢م، لم يكن هناك من يفكر أو يجرؤ على القول بفصل السودان عن مصر.

ثم يأتي يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢م، ومغادرة الملك فاروق البلاد في تمام الساعة السادسة من مساء ٢٦ يوليو ١٩٥٢م، مما أسدل الستار على العهد الملكي في مصر، بالتحديد مع إعلان النظام الجمهوري وإسقاط الملكية في ١٨ يونيو ١٩٥٣م، أي استمر عهد الملك أحمد فؤاد الثاني عام واحد فقط، لكونه رضيعاً، وضع الحكم تحت مجلس وصاية برئاسة الأمير عبد المنعم، (٢٦ يوليو ١٩٥٢م – ١٨ يونيو ١٩٥٣م)، وهو الابن الأكبر للخديوي عباس حلمي الثاني.

أنا ما كنتش أعرف إن البلد بيحكمها عصابة يا أنور:

أثناء مغادرة الملك فاروق البلاد على يخت المحروسة متوجهاً إلى منفاه، التفت إلى السفير الأمريكي مستر «جيفرسون كافري» وعلي ماهر باشا قائلاً لهما (إن هؤلاء الذين أرغموني على الخروج ما هم إلا مجموعة من المجرمين)، ويشاء القدر أن «جمال حماد» لواء أركان حرب وأحد الضباط الأحرار، وعضو مجلس قيادة الثورة، وكاتب البيان الأول لحركة الضباط في ١٩٥٢م، يقول نفس العبارة، بل وقال أيضاً عن هؤلاء عصابة كانت تحكم مصر، وقد قال فاروق الأول ملك مصر والسودان قبل الرحيل: إن نقطة دم مصرية أثمن عندي من كل عروش الدنيا، والرحيل فوراً أهون عليَّ من سفك دماء مصرية حفاظاً على منصبي.

اختلفت الآراء حول مدى مسئولية «جمال عبد الناصر» عن انفصال السودان عن مصر، وإنهاء وحدة وادي النيل التي حققها «محمد علي باشا» بداية من عام ١٨٢٠م، ومما لا

شك فيه أن عبد الناصر يتحمل مسئولية كبيرة عن هذا الانفصال، فقد كان فصل السودان عن مصر مخطط استعماري بغيض قام بتنفيذه «عبد الناصر» إرضاءً لبريطانيا وأمريكا فتغير التاريخ والجغرافيا معاً، وتبدلت الخارطة – اختلف الأمس عن اليوم – نحن نعلم أن أي استعمار عند مغادرته الدول المحتلة يترك وراءه مشاكل اقتصادية وتعليمية وثقافية واجتماعية وسياسية، وأكثرها خطورة المشاكل الحدودية، كأنه يتغنى بتمزيق البلاد المستعمرة، ثم تجلس هذه الدول بعينها على مائدة المفاوضات لإيجاد حلول للمشاكل التي ولدت من رحمها.

يا شعب مصر حبال النيل تربطنا ... والـذل والـنـكـد المـشـؤوم والـثـأر
فما بالنا اليوم نرضى أن نبوأهم ... ديـارنـا بـئـس مـا نـرضـى ونخـتـار
فـلا الـبـلاد الـتي عـاثـوا بها زمناً ... ولا الـقـنـاة لهـم في أرضـنـا دار

الشاعر جعفر حامد البشير

كان لاتفاقية الجلاء في ١٨ يونيو ١٩٥٤م والتي بموجبها تم الاتفاق على جلاء الإنجليز عن مصر والسودان، ومنح السودان حق تقرير المصير، وتم استفتاء شعبي على أن يختار الشعب السوداني إما استمرار الوحدة بين مصر والسودان أو الانفصال، فاختار الانفصال عن مصر، وأصبح كياناً مستقلاً تحت اسم جمهورية السودان، وكتابات التاريخ والواقع الذي حدث يؤكد على أن جمال عبد الناصر هو الطرف الأقوى الذي تسبب في تفتيت وحدة وادي النيل.

ذهبت السودان وتوارت في مهب الرياح:

تمر الأيام والسنون وتتغير الأحوال وتظهر دول وتختفي أخرى كأن موجة من سلسلة زلازل متعاقبة، تغير الخارطة الكونية، ويُعاد كتابة التاريخ الذي يثبت بأن عبد الناصر والبشير (ملك وكتابة) وجهان لعملة واحدة، وإن اختلف المكان والزمان، لقد جاء في مذكرات «نجيب» أن جمال عبد الناصر أضاع السودان ودائماً ما يقول بأن السودان عبء علينا، وذهبت السودان وتوارت في مهب الرياح، ودارت الأيام، ويجيء اليوم الذي يتكرر بقول البشير إن جنوب السودان عبء علينا، وذهب الجنوب أيضاً في مهب الرياح، رغم أن الشعبين المصري والسوداني يؤمنان بأنهما شعبٌ واحدٌ، وحدت

بينهما الطبيعة والنيل والحضارة واللغة والدين والتاريخ المشترك، وكان هذا الإيمان يدفع الشعب السوداني إلى الثورة على الاستعمار البريطاني، مطالبا بعودة الوحدة مع مصر، وبسبب السودان تعثرت جميع المفاوضات التي جرت بين مصر وبريطانيا التي أجراها زعماء مصر منذ عهد الملك فؤاد الأول عام ١٩٢٤م، حيث كانت بريطانيا تتمسك دوماً باستمرار الحكم الثنائي في السودان الذي كان محل رفض المصريين، وجاءت حركة الضباط الأحرار في صبيحة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م بقيادة محمد نجيب، وكان هذا الأمر صمام الأمان لوحدة البلدين.

كان عبد الناصر شديد الإيمان بالعروبة والوحدة العربية حتى إن الكثيرين أصبحوا يقسموا بالعروبة، وعلى سبيل المثال الفنان «عبد الحليم حافظ» كان قسمه (وعروبتي)- وعلى مائدة التاريخ نقرأ كلمات جمال عبد الناصر عن الوحدة العربية والعروبة فيقول «إن الوحدة العربية هي أملنا في تحرير فلسطين وفي عودة حقوق الشعب الفلسطيني»، و «الوحدة موجودة فعلا بين أبناء الشعب العربي، إن الخلافات قائمة بين النظم والحكومات»، وأن «القومية العربية هي التي تقرر كل شيء». مثل القوميات الأخرى القومية الألمانية – القومية التركية – القومية الروسية وغير ذلك من قوميات مختلفة، ورغم ذلك نرى تناقض صريح في الإيمان بالوحدة العربية، والتفريط في وحدة مصر والسودان، فقد كان السودان ما قبل ٢٣ يوليو ١٩٥٢م جزءًا لا يتجزأ من مصر، فقد كان لدى القيادات حينذاك فهم واع للأمن القومي المصري، والمجال الحيوي الجنوبي لمصر، كما يمثل العمق الاستراتيجي لها.

منذ أيام «محمد علي، إلى قيام حركة الضباط الأحرار لم يكن من يفكر في الانفصال حتى مع الضغط البريطاني، كما حدث بعد مقتل السير لي ستاك في ١٩ نوفمبر ١٩٢٤م، فكان من مطالب بريطانيا لرئيس الوزراء المصري «سعد زغلول»، سحب الجيش المصري من السودان، تُرى ما موقف سعد زغلول من هذا المطلب؟ لقد رفض بشدة، كما رفع البرلمان المصري احتجاجه من قرارات بريطانيا إلى عصبة الأمم، وبيَّن أنَّ مصر والسودان وطن واحد، هذا هو المفهوم الواعي للمصريين بأنَّ السودان جزء من الوطن المصري، الأرض، الهواء، الكيان واحد وليس إثنين.

كان من فكر ومبادئ الزعيم مصطفى النحاس «وحدة وادي النيل» فقد كان يعارض بشدة رغبة بريطانيا، التي كانت تخطط لتقسيم السودان، فقال النحاس كلمته المشهورة:

«تُقطع يدي ولا تقطع السودان، إذا تركنا السودان، السودان لن يتركنا» ويقول الشاعر السوداني «مصطفى عوض»:

أرجعوني لبلادي ... قد تمادى اليوم حزني
فأنا الصادي لماء الـ ... ـنيل، أين النيل مني؟
وأنا المشتاق للوا ... دي الذي قد غاب عني

وعن طرح فكرة الانفصال يقول الأمير عمر طوسون: «فلتستعمرنا السودان إن لم نستعمرها» ففكرة الانفصال أو الاستفتاء كانت مرفوضة زمن فاروق الأول، وعندما حاول البعض ضخ زيت اللهيب وإشعال فتيل الفتنة والوقيعة بين مصر والسودان بقولهم إن وحدة وادي النيل نوع من أنواع الاستعمار، فكان رد الأمير «عمر طوسون» رداً قوياً حاسماً، إذ قال: «فلتستعمرنا السودان إن لم نستعمرها» هكذا كان فكر ومبادئ المصريين قبل ٢٣ يوليو ١٩٥٢م تجاه السودان، فكان يعتبر المصريون شعباً وحكومة وأحزاب بأن السودان يُعد بمثابة مصر الجنوبية.

وأكد وزير الداخلية «أحمد فؤاد سراج الدين» على أن فكرة الاستفتاء كانت مستبعدة ومرفوضة، لأن السودان مثله مثل محافظة أسيوط، وسوهاج، وأسوان، والمنيا، فهو جزء أصيل من التراب المصري، والشعب واحد (مصريون – سودانيون)، واستمر المفهوم الواعي لدى الحكومات المصرية تجاه السودان، إلى قيام حركة الضباط كما ذُكر سالفاً، حتى إعلان الاستقلال في أول يناير عام ١٩٥٦م، ويُعد هذا اليوم من الأيام السوداء يشبه أيام ظمأ الأراضي الزراعية، يشبه ساعات العمل المضنية بلا إنتاج، يشبه أسراب الجراد التي تتسابق للقضاء على الأراضي الخضراء، ففي التاسع عشر من يناير ١٩٥٦م أعلن «جمال عبد الناصر استقلال السودان والانفصال عن مصر وتفتيت وحدة وادي النيل، بل كما نعلم تم تقسيم السودان إلى دولتين بعد حروب طاحنة بين الشمال والجنوب، أين السودان؟ أين السودان الآن؟ أين السودان غداً؟.

اتفاقية فبراير ١٩٥٣م بين بريطانيا والحكومة المصرية:

إلا أنه قد اختلف الاتجاه نحو الوحدة ما قبل وبعد ٢٣ يوليو ١٩٥٢م، كان مجلس قيادة الثورة يختلف عن الوحدة الطبيعية المصرية السودانية، ويعتنق مبدأ حق

السودانيين في تقرير مصيرهم، ولهذا كان طبيعياً أن توقع الحكومة المصرية برئاسة نجيب وبريطانيا في فبراير ١٩٥٣م اتفاقية وأهم ما نصت عليه:

- تمنح السودان حكماً ذاتياً.
- منح السودان مرحلة انتقالية أقصاها ثلاث سنوات تحت إشراف هيئة دولية.
- سودنة السودان أي إحلال السودانيين محل الموظفين المصريين والإنجليز في الجيش والبوليس وكذا في الإدارة والمصالح الحكومية.
- تمكين السودانيين من إبداء آرائهم في مستقبل بلادهم.
- منح السودانيين حق الاختيار إما الارتباط بمصر أو الاستقلال التام.

لذا تطلع الشعب المصري والشعب السوداني إلى إعلان الاتحاد بين الدولتين، ولكن لم يتحقق هذا الاتحاد بين الشعبين.

غياب الفكر القومي لدى رجالات ٢٣ يوليو ١٩٥٢م:

وقبل الاعتراف بالانفصال، حدث تحول خطير في الموقف المصري تمثل في عودة المفاوضات مع بريطانيا وقبول الضباط الأحرار مبدأ الاستفتاء على تقرير مصير السودان، وبهذا قد تنازلت حكومة مصر عن سيادتها على السودان وطلبت إجراء انتخابات عامة تحت إشراف لجنة دولية وإعطاء السودان مرحلة انتقالية من الحكم لتقرير مصيره بنفسها، وتم إسناد ملف السودان إلى «صلاح سالم» الذي لم يكن يعرف شيئاً عن قضية السودان، ومع ذلك أوفد مجلس قيادتهم صلاح سالم إلى جنوب السودان بهدف استطلاع الأحوال هناك، وقد زار المديرية الاستوائية، كما زار منطقة قبائل «الدنكا» وقام بتوزيع أموال على القبائل ولكل فرد حتى في الشارع، لضمان كسب تأييدهم للوحدة وعدم الانفصال، وبسبب ذلك شكك الناس في كل من يتكلم أو يدعو إلى الاتحاد مع مصر على أن وراء دعوته رشوة قد دُفعت إليهم، مما أدى إلى أن أصبحت سمعة مصر في السودان سيئة للغاية، حتى قيام «صلاح سالم» بالرقص للتقرب والاندماج مع القبائل السودانية فقام بالرقص عارياً تَشَبُّهاً برقص تلك القبائل.

تسبب صلاح سالم عند زيارته للسودان بأوضاع كارثية:

ومن المؤكد أن الضباط الأحرار تمتعوا بهشاشة فكر القومية العربية، ها هو مبعوثهم يرقص رقصة عارية قبل المفاوضات وتأييد السودانيين على استمرار الوحدة، فما كان إلا أنه اختفت السودان، وانطوت صفحاتها، ثم صارت كبقايا قصاصات من الأوراق المشتعلة التي لم يُقرأ منها سوى ملك مصر والسودان، ووصفت الصحافة البريطانية «صلاح سالم»

بأنه «الميجور الراقص عارياً، أو «الصاغ الراقص»، ويذكر التاريخ بأن «صلاح سالم» قدم الهبات المالية والمساعدات للزعماء السياسيين لكي يضمن ولاءهم لمصر، وضماناً لإعادة وحدة وادي النيل بعد انسحاب بريطانيا، ولكن هيهات، لا الأموال ولا الرقص أعاد السودان، وقد فشل في مهمته نتيجة هشاشة الفكر القومي بل وغيابه لدى رجالات ٢٣ يوليو ١٩٥٢م، وبسبب سياسات جمال عبد الناصر الذي كان دائماً يتغنى بالوحدة العربية، أين الوحدة التي تحققت في عهده؟، (كانت الوحدة بين مصر وسوريا في ٢٢ فبراير ١٩٥٨ إلى ٢٨ سبتمبر ١٩٦١م، التي غابت بمجرد شروقها، فعدم فهم مبادئ وعمق القومية العربية أدى إلى الفشل الذريع)، وما حدث للواء محمد نجيب، والإطاحة به وتحديد إقامته الجبرية في ١٤ نوفمبر عام ١٩٥٤م في فيلا زينب الوكيل، (قال محمد نجيب في مذكراته «كنت رئيساً لمصر» عن يوم الإقامة الجبرية التي فرضت عليه: «قال لي عبد الحكيم عامر إن إقامتك في فيلا زينب الوكيل لن تزيد عن بضعة أيام، تعود بعدها إلى بيتك، ولكن من يوم دخلت هذه الفيلا وحتى أكتوبر ١٩٨٣م لم أتركها» أي حوالي ٣٠ سنة، علماً بأن الرئيس السادات أطلق سراحه عام ١٩٧١م)، كان سبباً في تدهور العلاقة المصرية السودانية، فكان السودانيون يعتبرون «نجيب» رمز الوحدة بين البلدين، لذا بدأ ابتعادهم تدريجياً عن قضية وحدة وادي النيل، وكذا ما وقع على المعارضة المصرية، فقد رفض السودانيون استمرار الوحدة، بل قرروا الانفصال كأنه حلم كان يراودهم، إلا أن هذا الحلم لم يمر عليهم أبدا فيما قبل ٢٣ يوليو ١٩٥٢م، بل كان إيمانهم الصادق بأن السودان جزءٌ من مصر، وأن الشعبين شعبٌ واحدٌ، إذاً كانت النتيجة هي اختيار السودان الانفصال، والذي تم في يناير ١٩٥٤م.

ويذكر «عبد اللطيف البغدادي» في مذكراته تفاصيل اللحظات الكارثية التي مرت على الضباط الأحرار في قضية السودان، ودور صلاح سالم حين جاء في أغسطس ١٩٥٥م يخبر عبد الناصر أن «السودان ضايع.. ضايع»، واتهامه لبعض أعضاء المجلس بالتلاعب من وراء ظهره، لتنفيذ المخطط البريطاني الأمريكي الرامي لفصل السودان عن مصر، وأنه إزاء هذا الفشل قدم استقالته من مجلس قيادة الثورة ومن السلطة التنفيذية حتى يُخلي مسؤوليته من انفصال السودان عن مصر بعد ثلاثة أشهر عقب هذا الحادث، وبالفعل قَبِل الأعضاء استقالته في النهاية ليس لفشله في هذا الملف، وإنما لأنه اتهم أعضاء في المجلس بالخيانة والعمالة الإنجليزية الأمريكية.

عبد الناصر يقول: علينا أن نقبل النتيجة ويقول صلاح سالم: يعني مافيش فايدة

هذا وقد أجريت انتخابات في السودان فاز بها الحزب الوطني برئاسة إسماعيل الأزهري الذي تعهد بإجراء اتحاد مع مصر فوقعت اضطرابات في السودان وخاصة في الجنوب مما أدى إلى تحول إسماعيل الأزهري من تمسكه بوحدة وادي النيل إلى تغيير سياسته التي صارت سياسة استقلالية، ومن ثم تم خروج القوات المصرية من السودان في عام ١٩٥٥م.

تشكيل مجلس نيابي في السودان اتَّخَذَ عدة قرارات تاريخية وهي:

- إعلان استقلال السودان كجمهورية مستقلة ذات سيادة.
- تكوين لجنة من خمسة أعضاء ينتخبهم المجلس لتولي سلطات رئاسة الدولة ويعرف بمجلس السيادة.
- انتخاب جمعية تأسيسية لوضع دستور للبلاد.
- بحث قيام اتحاد فيدرالي بين الشمال والجنوب.

وفي عام ١٩٥٦م أعلن استقلال السودان وباشر مجلس السيادة سلطاته الدستورية واعترفت الدول بهذا الاستقلال.

طويت قضية السودان كجزء من مصر، باعتراف عبد الناصر بانفصال السودان عن مصر

في أول يناير عام ١٩٥٦م عقد البرلمان السوداني جلسته الشهيرة التي أعلن خلالها رئيس الوزراء إسماعيل الأزهري استقلال السودان، ثم أخطر أعضاء البرلمان أنه قد تلقى اعترافاً بهذا الاستقلال من جمال عبد الناصر رئيس وزراء مصر و «جون سلوين لويد» وزير خارجية بريطانيا، هكذا بكل سهولة ويسر يقبل عبد الناصر انفصال السودان عن مصر، كأنها شيئاً لم يكن، غاب الفكر، كما غاب الضمير، فكانت الغلبة للمصالح الشخصية على المصالح العامة، وبعد أن وافق جمال عبد الناصر على استقلال السودان وحقها فى تقرير مصيرها سافر إلى الخرطوم ليعلن عن قرارٍ تاريخيٍّ وهو استقلال الشعب السوداني أمام البرلمان، مرت السنوات التالية جحيم أسودٍ على الشعب السوداني، كما حزن المصريون الذين يدركون معنى ومفهوم القومية العربية، وقيمة السودان بالنسبة لمصر.

بعد إعلان جمهورية السودان رسميا في أول يناير عام ١٩٥٦م، والذي أصبح عضواً في جامعة الدول العربية في ١٩ يناير، وعضواً في الأمم المتحدة في ١٢ نوفمبر من نفس العام، ونتقدم خطوة نحو «السادات» الذي ولد في ميت أبو الكوم من أب مصري وأم سودانية، وقد كان على يقين بأهمية وحدة وادي النيل، لذا سعى إليها عندما تولى حكم مصر فتوصل إلى توقيع اتفاق التكامل الاقتصادي بين البلدين في فبراير عام ١٩٧٤م، حقاً كان للبطل السادات جهود مضنية لتحقيق هذا التكامل ومن ثم التمسك بخيوط الوحدة فإن وحدة وادي النيل تراود أي وطني مؤمن بها، بل وتذهب إليه قبل أن يفكر بها، والسؤال أين السودان الآن؟

دولة جنوب السودان هي الدولة الهشة ـ الفاشلة

لقد تم تقسيم السودان شمالاً وجنوباً في ٩ يوليو ٢٠١١م، في أعقاب الاستفتاء وهي دولة عضو في الأمم المتحدة، كما أنها عضو في الاتحاد الأفريقي، من جماعة شرق أفريقيا والهيئة الحكومية الدولية المعنية بالتنمية، وفي يوليو ٢٠١٢م، وقعت جنوب السودان اتفاقيات جنيف، وقد عانى جنوب السودان الصراع الداخلي منذ استقلالها، اعتبارا من ٢٠١٦م ولديها ثاني أعلى درجة على مؤشر الدول الهشة (سابقا مؤشر الدول الفاشلة).

البطل المصري دائماً ينظر إلى المستقبل:

لقد توطدت العلاقات بين الرئيس عبد الفتاح السيسي رئيس مصر والرئيس «سلفا كير» رئيس جنوب السودان منذ عام ٢٠١٤م عند استقبال رئيس مصر لرئيس جنوب السودان فى نيويورك على هامش أعمال الدورة التاسعة والستين للجمعية العامة للأمم المتحدة، وقد قام رئيس جنوب السودان بزيارته إلى مصر فى أعوام ٢٠١٤م، ٢٠١٧م، ٢٠١٩م تخللها العديد من اللقاءات في المحافل الدولية، مما أدى إلى ترسيخ العلاقات بين الدولتين، وزيادة مساحة التفاهم والثقة المتبادلة بين الرئيسين، وهو الأمر الذي انعكس على التنسيق فيما بين الدولتين، ثم زيارة الرئيس البطل السيسي عام ٢٠٢٠م، دولة جنوب السودان التي عكست من خلالها حجم التفاهم العميق بين الجانبين إزاء التعامل مع جميع الملفات على الأصعدة الاقتصادية والسياسية والعسكرية.

عالِم لا يُنسى

عبد الوهاب المسيري

هناك الكثير من العلماء المصريين الذين فاقت أعمالهم عقول بني البشر بل وأذهلت العالم، ومن هؤلاء النابغين العالم الجليل «عبد الوهاب المسيري»، الذي سطر تاريخًا ناصعًا في مجالات شتى، منها الأدب والسياسة، وكتاباته الشهيرة عن الإسرائيليات، بالإضافة إلى قصص الأطفال، ومواقفه السياسية والوطنية، فكان رحمه الله يتمتع بالوطنية الحقة وحب الوطن، وكما نعلم أنه كل يوم يولد المئات من البشر، «فمن اليسير أن يولد الإنسان ولكن من الصعب أن يصبح هذا الإنسان عالماً بارزاً»، فقد وهب الله سبحانه وتعالى مصر والعالم العربي والإسلامي بل والعالم أجمع هذا العالم المفكر الإسلامي الذي تحاكى عنه وعن فكره ومؤلفاته سكان هذا الكوكب، الرجل المفكر الذي قال: «لا يمكن أن ترى الأشياء بوضوح إلا من خلال القلب فكل الأمور الجوهرية غير مرئية»، بمعنى الاعتقاد والإيمان الراسخ بالقضايا الفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها لكي يعبر بها الإنسان للعمل الحقيقي إزاء تلك القضايا، وهو الذي قاد العديد من المظاهرات ضد الفساد والارتجالية في حكم زمن المخلوع المدان، وكم من المرات التي طالب فيها بالإصلاح والتغيير ورفض الولاية الخامسة للمخلوع، وكذا معارضة خطة توريث الحكم لابنه، فكان رد فعل النظام الاعتداء عليه في بعض المظاهرات، بل وصل الأمر إلى اعتقاله في مرات أخرى، وحتى في فترة مرضه لم يتوان عن حضور اللقاءات والندوات والمؤتمرات، فكم كان منشغلا بهموم الوطن رغم صعوبة هذا المرض الذي ألـمَّ به، ولِـمَ لا؟ وهو صاحب مقولة «إن أي إنسان ثوري لا يمكن إلا أن يؤمن بالعقل التوليدي القادر على تجاوز الواقع المادي القائم».

ولد ونشأ المفكر العالمي رحمة الله عليه في مدينة دمنهور في مصر في الثامن من أكتوبر عام ١٩٣٨م، وتوفي في الثالث من يوليو عام٢٠٠٨م، تلقى تعليمه الابتدائي والثانوي في مقر نشأته، وفي عام ١٩٥٥م التحق بكلية الآداب جامعة الإسكندرية بقسم اللغة الإنجليزية، وتخرج عام ١٩٥٩م وعين معيدا بها، ثم سافر إلى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٦٣م للحصول على درجة الماجستير في الأدب الإنجليزي المقارن من

جامعة كولومبيا بنيويورك، وحصل على الدكتوراه من جامعة رتجرز بولاية نيو جيرسي الأمريكية عام ١٩٦٩م.

ومع عودته إلى مصر شغل العديد من الأعمال ومنها التدريس في جامعة عين شمس وجامعة الملك سعود بالمملكة العربية السعودية وعدة جامعات أخرى بالدول العربية، والجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، كما عمل أستاذاً زائراً في أكاديمية ناصر العسكرية، ومن عام ١٩٧٠م إلى ١٩٧٥م عضو بمجلس الخبراء في مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، وبين عامي ١٩٧٥م و١٩٧٩م أختير مستشاراً ثقافياً للوفد الدائم لجامعة الدول العربية لدى هيئة الأمم المتحدة في نيويورك، وهو عضو مجلس الأمناء في جامعة العلوم الإسلامية والاجتماعية ببليسبرغ، بولاية فرجينيا في الولايات المتحدة الأمريكية.

ومن أبرز صور نشاطه السياسي، أنه انتمى إلى اليسار المصري وتحديداً للحزب الشيوعي، ثم انضم إلى حزب الوسط الإسلامي، ليصبح من أوائل المؤسسين له، وقبل وفاته شغل منصب المنسق العام لحركة كفاية، التي تأسست في نهاية ٢٠٠٤م للمطالبة بإصلاح ديمقراطي في مصر ونظمت سلسلة مظاهرات احتجاجاً على إعادة انتخاب الرئيس المصري المخلوع «حسني مبارك» لولاية خامسة في عام ٢٠٠٥م، (الجدير بالذكر أن مبارك كان قد وصل إلى مرحلة النوم في العسل، فلا تغيير ولا إصلاح، وترك الوضع كما هو عليه)، وقد تعرض للاعتقال من قبل السلطات المصرية أكثر من مرة في عهد المخلوع، وفي يناير٢٠٠٧م تولى منصب المنسق العام للحركة المصرية من أجل التغيير «كفاية» وهي الحركة التي عارضت في تلك الفترة حكم «مبارك» وسعت لإسقاطه من الحكم بالطرق السلمية ومعارضة تولي ابنه «جمال» منصب رئيس الجمهورية من بعده، ومن المفترض أن حركة كفاية وغيرها من الحركات السياسية الثورية التي طالبت برحيل مبارك أنها قد لعبت دوراً محورياً غائباً، إلا أنها ليس لها من النفع العائد للوطن، ولا تغيير ولا إصلاح ولا تحقيق أهداف وطنية في ظل «الديكتاتورية».

ليس هناك علاقة بين الصهيونية واليهودية:

كان «المسيري» يفصل بين المشروع الإسرائيلي التوسعي وبين الدين اليهودي واليهودية ويرى أن المشروع الإسرائيلي مشروع استعماري قائم على المبادئ التنموية التوسعية

الاستعمارية، احتلال الأراضي، وتصديق مشروعهم «العودة للوطن»، وهذا المشروع ليس له علاقة باليهودية، كما أن الصهيونية تشبه إلى حد كبير الفاشستية، ويستحوذ على عقولهم الفكر الصهيوني الذي يهيمن عليهم كعصير الخمر، ويرتدون ثوب الغفلة الذي به يسبحون في بحر ليس له نهاية. وكان يقول: «المجتمع الإسرائيلي ليس مجتمعاً عنصرياً وحسب ولكن قوانينه أيضاً عنصرية».

وهو صاحب موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية أحد أكبر الأعمال الموسوعية العربية في القرن العشرين، واستطاع من خلالها إعطاء نظرة جديدة موسوعية موضوعية علمية للظاهرة اليهودية بشكل خاص، وتجربة الحداثة الغربية بشكل عام، مستخدماً ما طوره أثناء حياته الأكاديمية من تطوير مفهوم النماذج التفسيرية، وصدرت له عشرات الدراسات والمقالات عن إسرائيل والحركة الصهيونية ويعتبر واحدًا من أبرز المؤرخين العالميين المتخصصين في الحركة الصهيوينة، لذا توصل إلى أن الطبيعة الوظيفية لإسرائيل تعني أن الاستعمار اصطنعها لتقوم بوظيفة معينة فهي مشروع استعماري لا علاقة له باليهودية.

وأهدى للعالم خطاباً إسلامياً جديداً معتدلاً بعيداً عن الإمبريالية، يهتم بالمقاصد دون الغرق في تفاصيل الفقه ليكون صالحاً للتواصل الإنساني العالمي، كان يربط دائماً بين الصهيونية والعنصرية وبين كفاح الشعب الفلسطيني ضد الصهيونية، وكفاح شعب جنوب إفريقيا ومقاومته ضد البريتوريا (العنصرية البيضاء).

ومن مؤلفاته أيضاً «نهاية التاريخ مقدمة لدراسة بنية الفكر الصهيوني»، الذي أثبت فيه أن نهاية التاريخ فاشية اخترعتها الدول الغربية للسيطرة على العالم، والعنصرية الصهيونية والفردوس الأرضي «دراسات وانطباعات عن الحضارة الأمريكية «والأيديولوجية الصهيونية، «دراسة حالة في علم اجتماع المعرفة» والانتفاضة الفلسطينية والاستعمار الصهيوني وتطبيع الشخصية اليهودية «دراسات في بعض المفاهيم الصهيونية والممارسات الإسرائيلية»، وإسرائيل وجنوب أفريقيا، الماسونية ونظرية المؤامرة، وانهيار إسرائيل من الداخل، واليد الخفية «دراسة في الحركات اليهودية الهدامة والسرية، والأكاذيب الصهيونية من بداية الاستيطان حتى انتفاضة الأقصى، ومن مؤلفاته موسوعة تاريخ الصهيونية، وموسوعة اليهود في عقل هؤلاء، والموسوعة الموجزة وغير ذلك من المؤلفات العربية والأجنبية، هذا بالإضافة لترجمته

بعض الأعمال، لذا كان مكروهاً في إسرائيل، ولِمَ لا؟ فهو دائماً ما توقع بزوال تلك الدولة الافتراضية وشبهها بزوال دولة المماليك.

وقد كتب العديد من المقالات باللغتين العربية والإنجليزية في كثير من الجرائد والمجلات ومنها الأهرام، الحياة، الشرق الأوسط، الشعب، منبر الشرق، الإنسان، قراءات سياسية، لماذا لا تبيد إسرائيل الشعب الفلسطيني؟، فشل التجربة الصهيونية، نظرية الأمن الصهيونية وفشلها، لماذا ينحاز الغرب إلى إسرائيل؟، شئون فلسطينية، العربي، New York Times – Journal of Arabic Studies – Journal of Palestine Studies – Al-Ahram Weekly, etc. بالإضافة للعديد من المجلات والحوليات العربية والبريطانية والأمريكية.

المثقف الذي لا يترجم فكره إلى فعل لا يستحق لقب مثقف:

كان يحلم بعالم مثالي وتمنَّى تحقيق جمهورية أفلاطون بفكره ومعتقده وعمله ويجمع كل هذا في بوتقة فعله، فرؤيته عن المفكر والمثقف رؤية ديناميكية، فلا يجب أن يتوقف المفكر عند النظريات فقط، بل يجب أن ينزل إلى الشارع مطالباً بالعدالة والحرية التي لا تُشترى، إذا افتقدها الإنسان، وهو صاحب مقولة «المثقف الذي لا يترجم فكره إلى فعل لا يستحق لقب مثقف»، وكان يرى أن العقلانية تفوق المادية فمن أقواله أن الإيمان لم يولد داخلي إلا من خلال رحلة طويلة وعميقة، إنه إيمان يستند إلى رحلة عقلية طويلة ولذا فإنه إيمان عقلي لم تدخل فيه عناصر روحية فهو يستند إلى عجز المقولات المادية عن تفسير الإنسان وإلى ضرورة اللجوء إلى مقولات فلسفية أكثر تركيباً لكنها موضوعية.

وكما كان من مُفجِّري الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩م كل من منتيسكو وجان جاك روسو وسيزار دي بكاريا بأفكارهم ورغم أن هؤلاء المفكرين قد طالبوا بالعدالة الاجتماعية وفصل السلطات، التشريعية – التنفيذية – القضائية، والديمقراطية والحرية ومنع الاستبداد، إلا أن الثورة الفرنسية قامت على الدماء حتى إنها سميت «بثورة المقصلة» the guillotine revolution، بسبب كم الدماء التي أهدرت وأريقت آنذاك كأنها مجرى مائي متدفق، فكان عبد الوهاب المسيري أيضا أحد مُفجِّري الثورة المصرية المجيدة ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١م ورغم تشابه مفكري فرنسا مع المسيري وغيره من المفكرين المصريين، إلا أن الثورة المصرية اختلفت عن الثورة الفرنسية، فكانت ثورة مصر ثورة سلمية نادت

بالعيش والحرية والكرامة الإنسانية، ولكن هذه الثورة صنعها الشرفاء الوطنيون، واستولى عليها الإخوان المجرمون، إلا أنه قدر لمصرنا الغالية أن يأتي من ينقذها، بطل مصري وطني اتصف بالشجاعة والولاء للوطن ألا وهو «عبد الفتاح السيسي» الذي أنقذ مصر وشعبها، بل وشعوب المنطقة بأكملها، من هؤلاء الذين لا يعرفون معنى الوطن، الذين عملوا على محو الدولة المصرية لتحقيق غاياتهم العنصرية، وكيف يمحون مصرنا الغالية وقد ذكرت في القرآن الكريم في أكثر من موضع.

قال تعالى:

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا ﴾ [يونس: ٨٧] ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ ﴾ [يوسف: ٢١] ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [يوسف: ٩٩].

وذكر قول الله تعالى: ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [الزخرف: ٥١].

الرغبة المعلوماتية حينما تنهش إنساناً فإنها تجعله يقرأ كل شيء حتى يعرف كل شيء وينتهي الأمر بالمسكين أنه لا يعرف أي شيء

عبد الوهاب المسيري

هذا وقد نال المفكر العالمي عبد الوهاب المسيري العديد من شهادات التقدير والجوائز المحلية والعالمية، من بينها شهادة تقدير من الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، ورابطة المفكرين الإندونسيين، اتحاد الطلبة الإندونسيين، وجامعة الإمارات، ومعرض الكتاب بالقاهرة ونال أيضا جائزة أستاذ الجيل من الشباب العالمية لخدمة العمل الإسلامي الخامسة بمملكة البحرين، وجائزة سوزان مبارك لأحسن كاتب لأدب الطفل، وجائزة أحسن كتاب، من معرض القاهرة الدولي للكتاب، «كتاب» «رحلتي الفكرية»، وشهادة تقدير من منظمة فتح الفلسطينية، وغيرها من الجوائز وشهادات التقدير.

غيّب الموت العالم الجليل المسيري إلا أنه بأعماله كالشمس التي لا تغرب:

دائماً تُطوى صفحات التاريخ بشخصياته وأحداثه إلا أن بعضها لا تُطوى صفحاتهم ومن هؤلاء المفكر المصري العالمي الدكتور عبد الوهاب المسيري، الذي أثرى الحياة

الفكرية والأدبية والاجتماعية والسياسية والوطنية، وقد كانت تلك الأسطر القليلة تعبر بعض الشيء عن تلك الشخصية الوطنية المتمثلة في هذا العالم الجليل، حتى لا ننساه، وقد توفي في فجر يوم الخميس ٢٩ جماد الآخر ١٤٢٩هـ الموافق ٣ يوليو ٢٠٠٨م، بمستشفى فلسطين بالقاهرة عن عمر ناهز السبعين عاماً بعد صراع طويل مع المرض، وشيعت جنازته ظهرا من مسجد رابعة العدوية بمدينة نصر بالقاهرة، هذا وقد شارك في صلاة الجنازة آلاف المصريين المحبين والمقدرين لأعمال وفكر هذا العالم الجليل، وكذا حضور عشرات العلماء والمفكرين، رحم الله الدكتور العالم المصري والإسلامي رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته.

كان المسيري ينبذ الظلم والقهر والتسلط الذي كرهه، ويؤمن بالحق الذي سوف يكسر هذا الظلم ويسحقه، كما كان كارهاً لكل أنواع القيد وعلى رأسه الاستعمار حتى إذا كان استعماراً مُقنَّعاً، فكان تجسيد العدالة في كتاباته ومؤلفاته ومقالاته، كأنها لوحة أو تحفة فنية أو موسيقية، فكان يدافع عنها فهي التي تواجه القبح الذي يتسلل إلى مختلف جوانب الحياة، لذا فهو الثائر الذي يرفض جميع أشكال الظلم، ويؤمن بقدرة الإنسان على المقاومة والتحدي وإعادة الاستقامة ومحو الاعوجاج، واختفاء الصورة المقلوبة.

ست الدار
«كانت وأصبحت»

القصة ترجمة فكرية ثقافية... واقعية أو خيالية فهي تعبير عن أفكار صاحبها

في بعض اللحظات التي تمر على خاطري تعود بي الذكريات منذ سنوات مضت وأتذكر عندما كنا نستقل القطار أنا وعائلتي «أبي وأمي وإخوتي»، في إجازة الصيف لقضاء بعض الأيام في المدينة التي طالما أشتاق إليها ألا وهي مدينة الإسكندرية، ودائماً ما كنت أجلس بجوار الشباك الذي طالما نظرت منه فلا تنقطع تلك النظرات إلا عندما نصل إلى منتهانا.

وكان رأسي يتمايل مع حركة القطار لكن عيناي كانتا لا تشعران بالاهتزاز لما تشاهده من الحقول الغنَّاء والأراضي الخضراء الفسيحة التي كانت تتزين بالأشجار والنخيل، والتي كانت تعلن الفراغ العمراني الذي يضيف على الرؤية رؤية، وأستنشق رائحة هذه الحقول التي كانت تجمعها السماء الصافية الخالية من أي ملوثات، وكانت تلك الأراضي الخضراء دائماً ما أتحدث معها وأناجيها وتغمض عيناي من جمالها فكانت كامرأة جميلة تتزين وترتدي ثوباً تختلط به الألوان الخضراء والبيضاء واللبنية السماوية، عندما قامت الحضارة الفرعونية على الزراعة واستقرار المصريين القدماء على ضفاف النيل، فقدسوا نهر النيل وقالوا: علمنا النيل الرسم والتلوين، علمنا النيل السببية، ما أروع استغلال الطبيعة وبقائها على حالها.

كانت علاقات الناس في الريف في الزمن الماضي قائمة على المودة والنقاء والإخلاص؟ فلا تجد جائعاً أو محروماً حيث كانت البيوت وقتئذٍ جميعها ملكاً للجميع، كانت لا تزال أخلاق القرية سمة يتصف بها الناس، هذا الزمن الذي كان الريف لازال كما هو يستمتع به ساكنوه والوافدون عليه... لكن تبدلت الأحوال مع قلة الخدمات العامة والترفيهية، وكذا عدم توفير فرص للعمل في المناطق الريفية، فتمخض عن ذلك تفشي الأمراض الاجتماعية مع المشاكل المتشابكة سواء اجتماعية أو اقتصادية أو ثقافية.

كما تغيرت معالم الريف المصري الجميل فعندما أستقل القطار في تلك الآونة لا أرى

سوى البنايات ذات الطوب الأحمر التي تلوث البصر واختفاء البيت الريفي الذي طالما تمتع بالبساطة التي كانت تكسبه جمالاً وطابعاً مميزاً، ويصل بي الأمر لغضب شديد مما أستنشقه من غبار وأتربة، فقد جاء اليوم لنفتقد استنشاق رحيق الحقول، أحدث نفسي وأسألها أين حقلنا الذي كنا نتغنى به؟ أين الزروع؟ أين الأشجار والنخيل؟ أين فلاح القرية البسيط الجميل؟ أين نحن الآن من الفراعنة وأجدادهم؟

لقد تبدلت الأحوال من الزمن الجميل إلى زمن التلوث والسموم واختفاء ما هو جميل ورائع، فقد كان الريف يتميز بالبساطة في كل شيء، فتكدست فيه السيارات والشاحنات التي سببت عوادمها تلوث الهواء، وتمر الأيام لنستيقظ على التوسع في التصنيع الريفي الذي حَّول هدوءه القديم إلى ضجيج متزايد، ثم يأتي الانفتاح الاقتصادي زمن السادات، ومع فقدان الوعي وغياب ثقافة المساحات الخضراء وأهميتها في حياتنا، ترك العديد من المزارعين الأراضي الزراعية وسارعوا إلى السفر إلى البلاد العربية، والعودة بالكاسيت والمروحة، كانت ظاهرة لدى هؤلاء العائدون من الخارج القاطنون ريف مصر، وكان الأخطر من ذلك أن هؤلاء اهتموا ببناء مساكن لهم ولذويهم من المسلح موضع الأراضي الزراعية والبيوت الريفية الصحية، كل هذا أدى إلى تقلص الأراضي الخضراء والحقول وتجريف التربة الزراعية رغم أنها أجود أنواع التربة – التربة السوداء – كما اجتثت الأشجار والمراعي دون نظرة للغد.

ونعود إلى ما قبل الانفتاح الاقتصادي زمن «جمال عبد الناصر» الذي أصدر قوانين الإصلاح الزراعي، وتوزيع الأراضي الزراعية على أُسر المزارعين دون تدخل الدولة في الإدارة الزراعية واختفاء دورها، (عندما تولى محمد علي حكم مصر أدار الزراعة من منطلق الاقتصاد الموَجَّه، لذا ظلت الأراضي الزراعية ملكاً للدولة وأدى ذلك لتطوير الزراعة وإدخال محاصيل زراعية جديدة، وزيادة رقعة الأرض المنزرعة، بمعنى تطوير كماً ونوعاً)، فكانت بداية فقدان التربة الزراعية بل وبداية اختفاء الريف المصري بروعته وجماله وبساطته، كما نتج عنه بداية سرعة معدل النمو السكاني، وارتفاع نسبة الأمية لأن الفلاح المصري افتقد كل وسائل الترفيه فكانت حياته عبارة عن قضاء وقت فلاحة الأرض من الفجر إلى المغرب وكانت حياته تتلخص في أمرين، هما: العلاقة الحميمة مع زوجته، وبرَّاد الشاي، من وقت الغروب إلى منتصف الليل؟، ثم يخلد للنوم، ويستيقظ فجراً، متوجهاً إلى أرضه لزراعتها، والجدير بالذكر أن المزارع المصري

في تلك الآونة اتجه إلى الإنجاب لأنه أصبح مالكاً وليس أجيراً، فكثرة الأولاد من وجهة نظره لمساعدته في فلاحة الأرض، ممَّا سبب كوارثًا للزراعة المصرية فيما بعد.

وإذا عُدنا إلى زمن الريف المصرى الرائع والسائد بالسلام والرضا وتقدير القيم الاجتماعية بين الجميع، فقد كانت القلوب ناصعة لا تعرف الكراهية أو الحقد، فقد كان الجار عون جاره في كل المناسبات، ولِمَ لا؟ وقد كانت العلاقات الطيبة بين أهالي القرية هي السائدة، كما كانت العادات السائدة في هذا الزمن الجميل أن يجتمع أهالي القرية في شهر رمضان قبيل أذان المغرب يتحدثون ويتسامرون وكان أطفال القرية يلعبون أمام البيوت في فرح وسعادة غامرة، وكان رجال القرية يتوجهون للصلاة ومن غاب يوماً يذهبون إلى بيته للسؤال والاطمئنان عليه، لذا لم يوجد مكان للخوف أو الجزع والذعر، كانت علاقات حميمة طيبة بين ساكني البيوت الطينية البسيطة الجميلة.

قال الله تعالى:

﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

الريف المصري مصنع القِيَم والأخلاق الحميدة الرفيعة المستمدة من طين الأرض والطبيعة الساحرة المحركة للخيال الخصب العفي، نعم كانت هنا بهجة الجمال والهدوء والسكينة والسعادة، بعيداً عن صخب وضوضاء المدن، وكرنفال المرور العجيب، وزحام الشوارع الخانقة بالأتربة والملوثات، جراء دخان المقاهي والمطاعم والقمامة المتراكمة في الأزقة والحارات، والتلوث السمعي والبصري والبيئي حَدِّث ولا حرج عبر آلة التنبيه من خلال السيارات وخاصة الميكروباص الذي يستخدم آلة التنبيه دون داع لها، ونداءات الباعة الجائلين، وصخب المتسوقين في الأسواق أيضا، هل نصدق بأنَ كل هذا انتقل إلى الريف المصري، فضلا عن أن الريف المصري كان معروفا بتمسكه الشديد بالعادات والتقاليد الرصينة التي تربَّت عليها أجيال كثيرة، نشأت نفتخر بتلك العادات والقيم من كرم الضيافة واحترام الكبير وتوقير الجار ومراعاة حقوقه لدرجة أن الأفراح لم تكن تقام أو أي مظهر من مظاهر البهجة طالما حل بأحد عائلات القرية خطب أو ملمة، ناهيك عن احترام المرأة وعدم التعرض لها بأي سوء حتى وإن أساءت، كان بين الفلاحين تكامل لا يمكن وصفه، فالمرأة الريفية عينها على جيرانها ممن لا يملكون

خيرًا مثلها، كان الجميع بمثابة أهل بيت واحد تسوده السكينة والهدوء، فلا تسمع لفظا خارجا أو سبًّا أو قذفًا، أو أي نوع من المعاملة، وكان الفلاح في الريف المصري يتمتع بأخلاق حسنة وشهامة و طيبة ونبل ليس له مثيل،لِمَ لا؟ درة تاج الفلاح الطين الذي يرتوي بعرقه ويقضي معظم حياته في مملكته الزراعيةَ.

اختفى الريف المصري ولم يتبق منه سوى أراضٍ خاوية... لا حول لها ولا قوة إلا بالله، لقد تبدلت الأحوال، فالمرأة الريفية التي كانت تشبه أوركسترا موسيقية تعطينا نغمات متعددة ومتناسقة، فقد كانت المرأة في الريف المصري سابقاً تشارك في عملية الإنتاج والتنمية، وكان قرارها ومجهودها ينصبُّ على سوق العمل، وكذلك مشاركتها في النمو الاقتصادي في المجتمع المصري، بحيث أنها تلبي احتياجاتها وأسرتها فضلا عن أن المجتمع يتمتع بخدماتها وما تنتجه، كما كانت تقوم مع مطلع كل فجر بعملها اليومي من إشعال الفرن لإعداد الخبز وإعداد إفطار زوجها لكي يذهب إلى الأرض الجميلة الخضراء التي كان يحبها ويعشقها، وكانت أيضاً تقوم برعاية الماشية ورعاية أطفالها ولا مانع من مساعدة زوجها في زراعة الأرض، وكذا إعداد الغداء وحمله إلى زوجها فلاح القرية، لقد كان الريف المصري مضرب الأمثال في الأخلاق والفضيلة والتلاحم والأمان والكرم واحترام الكبير والعطف على الصغير، وإكرام الضيف وإغاثة الملهوف ومساعدة المحتاج والتماسك والترابط الاجتماعي، لماذا تبدل كل شيء؟

تبدلت الأحوال وفقد البيت الريفي ذاته ووظائفه، واختفت المرأة الريفية التي كانت تنتج الألبان وتصنع الجبن والزبد والقشدة وتُربِّي الدواجن والطيور والخراف والماعز، فكانت بحق امرأة منتجة لأهلها وللسوق والمدينة رغم ضيق الحياة، كما كان الريف المصري وعلى رأسه المرأة الريفية (ست الدار)، يقف على قدمين ثابتتين في التعاون والتكامل، فلا تجد فلاحاً يعمل في أرضه بمفرده لكن تجد معه زوجته في كثير من الأحيان، وكان التعاون بين كل المزارعين، يزرعون ويحرثون ويروون ويحصدون سوياً، وتمزقت أواصر العائلات والعلاقات التعاونية التكافلية بين سكان القرية الواحدة، لقد كان الناس في الريف المصري، يستيقظون من نومهم على إشراق صباح ندى معتق بالندى الصباح، أو يتنفس هواء الأرض الزراعية النابع من تلك اللوحة الخضراء التي أبدعها المولى عز وجل في أروع صورها، وكانوا يسمعون العصافير وهي تهدي زقزقاتها المبهجة، فتبدل ذلك بسماع النحيب والعويل والصوت العالي المفزع الذي يسمعه الأهالي عندما

يستيقظون على خناقات بين الجيران، وعلى هواء مفعم بالسموم وسحابة سوداء تملأ الجو، اختفت رائحة هواء الريف النقية المبهجة التي كانت تشفي النفوس، والندى وهو يعانق أوراق الورد بود في كل صباح جديد مفعم بالسعادة والرضا، يا له من أمر محزن للغاية.

والسؤال الذي يُلِحُّ على كثيرين: أين هي الآن ست الدار؟ ليت في عودتها أمل، فهل تظهر ويعود الريف المصري فتياً قوياً، ومعه تعود الحياة الجميلة الخالية من التلوث، الخالية من الضوضاء، ويعود المسكن الريفي بطابعه الخاص، هل يعود الريف وتعود الذكريات الماضية؟ فكانت ست الدار وهكذا أصبحت.

تغنت أم كلثوم للشاعر أحمد رامي وقالت:

القطن فتح هنا البال والرزق جه وصفا لنا البال
أبيض منور على عوده يحيي الأمل عند وجوده

(كـــان جـار لنا)

شهيد صلاح حواش

قال الله تعالى:

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩]

﴿ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[آل عمران: ١٧٠] صدق الله العظيم.

ستظل حرب أكتوبر، معركة العزة والكرامة والبناء التي ضرب أبطالها أروع الأمثلة في الإخلاص والتضحية، والتي أثبتت أن مصر صخرة صلبة تنكسر عليها كل أحلام الطغاة والمستعمرين، وأن جيشها العظيم كان ولا يزال الدرع الواقي والحارس الأمين لمصر في السلم والحرب.

من كان له جار ممتاز، فإنه يملك كنزاً ثـمـيناً

نيقولاس بنتلي

كنا نسكن في السكاكيني بحي الظاهر بيبرس، هذا الحي الذي سكنه المشاهير، وكنا نقطن في أحد عقارات شارع سليمان أباظه، الدور الثالث، وكان يسكن أمام بيتنا الأستاذ عبد الرحمن وزوجته طنط ملكة، وكان له ثلاثة أبناء، هم ناجي ونادر وناصر وأختهم نجوى، وكانوا يكبرونني سناً، ولم نكن جيران فحسب بل كنا أهل، وقد تزوجت نجوى من ضابط في القوات المسلحة الذي أصبح أخا لنا وهو البطل الشهيد صلاح حواش، وكان عمري تقريباً عشر سنوات، ورزقه الله بمولودة عام ١٩٧٠م وسمَّاها «مي»، ثم رزقه الله تعالى عام ١٩٧٢م بمولود وسمَّاه «أحمد»، وكان البطل كريم الأخلاق، طيب القلب، وكنت دائماً أتحدث معه خاصة لـمَّا بدأت أفهم معنى استرجاع أرضنا (سيناء الغالية) من الاحتلال الصهيوني العدو الغدار، وسيستمر عدونا الأبدي، وفي سنة ١٩٧٢م أصبح عمري ثلاثة عشر عاما، مما دفعني أن أسأل البطل صلاح زوج جارتنا، متى نسترجع سيناء الطاهرة من أيدي العدو الصهيوني؟ متى نحاربهم؟ رد عليَّ قائلا: بإذن الله حنحاربهم وسوف نسترجع كل شبر من أرضنا، نحن لا نفرط في أرضنا أبداً، ولكن في

الوقت المناسب علشان نحقق النصر بإذن الله تعالى، وقال: لأجل مصر العزيزة نفديها بدمائنا وارواحنا.

علقة ساخنة ثم رد الاعتبار:

وفي يوم من أيام صيف ١٩٧٣م، جاء بعض أقارب جيراننا بزيارة إليهم، وكان من بينهم بنت لا أتذكر اسمها، ولكن كانوا ينادونها «رومانة»، وتعارفنا عليهم، وقال لي جارنا «ناصر» الذي كان يكبرني، بأن رومانة بتلعب مصارعة، وكانت في سني تقريباً، وسألني هل تستطيع أن تباريها في المصارعة؟ أنا بغرور الرجال قلت له: طبعاً وسوف أهزمها، فكيف أقول لا؟ فهل تهزمني بنت؟ كلا، لذا وافقت، ولكن للأسف هُزمت وأخذت علقة ساخنة منها، وعندما عاد أبوه صلاح قصصت عليه ما حدث ومؤامرة ناصر ضدي، (مؤامرة لعب وهزل)، فقال لي: ماتزعلش يا عمدة، هكذا كان يناديني، فأخذ بتعليمي بعض حركات المصارعة وشجعني وقال لي: سوف تهزم «رومانة» وترد اعتبارك.

وطلبت من «ناصر» أن ألتقي برومانة في مباراة ثانية، فوافق، وقد تمكنت من هزيمتها هذه المرة وأخذت ثأري منها، وذهبت لجارنا صلاح فرحاً وقلت له: أنا هزمت رومانة، فابتسم وعانقني، ثم سألته بدون تفكير: متى نهزم إسرائيل؟ فابتسم وقال لي: قريباً جدًّا. قلت له: يارب، وقال لي: اطمئن يا عمدة مصر محمية، فقلت له: أكيد مصر محمية، وإن شاء الله سوف ننتصر على الدولة المزعومة إسرائيل ونسترجع أرضنا، قال: كما قلت لك مصر نحميها بدمائنا وأرواحنا.

شمس لا تغيب

إن كان دين محمد لن يستقيم إلا بقتلي، يا سيوف فخذيني

الحسين بن علي بن أبي طالب

جاء اليوم المشهود يوم النصر العظيم، يوم السادس من أكتوبر ١٩٧٣م، العاشر من رمضان ١٣٩٣هـ، الساعة الثانية إلا خمس دقائق ظهراً، لانطلاق المصريين من أجُل تحرير الأرض، تحرير حاضرة البحرين، وكانوا يرددون: الله أكبر الله أكبر، وجُل أمانيهم النصر أو الشهادة، وهذا التوقيت الذي تم تحديده من «عبد الغني الجمسي» الذي شغل منصب رئيس لهيئة القوات المسلحة في يناير ١٩٧٢م ثم رئيساً لأركان القوات المسلحة ١٩٧٣م.

(صاحب توقيت الحرب بناءً على تعليمات الرئيس الراحل البطل السادات، بعد دراسته أنسب التوقيتات للقيام بالعملية الهجومية ووضعها للرئيس السادات وحافظ الأسد وسُمِّيت بكشكول الجمسي).

عندما سألوا الرئيس السادات عن ميعاد الحرب قال لهم.. اسألوا نوال:

كان الرئيس السادات يشير لأحد أعمدة الجيش المصري في ذلك الوقت وهو اللواء أركان حرب / «نوال السعيد» رئيس هيئة الإمداد والتموين بالقوات المسلحة المصرية والمسئول عن تجهيزات القوات المسلحة والتي يعلمها جيداً رئيس هذا السلاح ذي الأهمية الكبيرة، ومدى جاهزيتها لرجال القوات المسلحة وقت الحرب وفي حالة نقصها فإن الحرب بالتأكيد لن تحدث.

الحكاية حكاية بطل من أبطال حرب أكتوبر:

مصر المحروسة، مصر محمية من الله عز وجل، دائمًا وأبدًا مصر تنجب الأبطال فهي بحق أم الأبطال، دائماً وأبداً كانت القوات المسلحة المصرية على استعداد بكل قواتها، وقواتها العسكرية على موعد لاسترداد أرض سيناء، وقد أظهرت حرب أكتوبر ١٩٧٣م، بالفعل مدى هذا الاستعداد في جميع التشكيلات القتالية للجيش المصري، ومن بين تلك التشكيلات «وحدات المظلات» المصرية التي أثبتت قدرتها المتميزة وقت الحرب، الحكاية هي حكاية بطل من أبطال قوات المظلات، وهو الرائد صلاح عبد السلام حواش،

ميلاد بطل صاحب كتيبة «صائدو الدبابات»:

في حي السيدة زينب العريق ولد البطل صلاح عبد السلام حواش عام ١٩٤٣م، ومنذ وصوله المرحلة الإعدادية كان عندما يُسأل ماذا تريد أن تصبح عندما تكبر كان يقول بأنه يريد أن يصبح ضابطاً بالجيش المصري لأشارك زملائي في الدفاع عن وطني، هذا وقد تخرج فى الكلية الحربية عام ١٩٦٦م. وشارك البطل في حرب اليمن، ومعارك الاستنزاف، كما حصل البطل على وسام نجمة سيناء من الدرجة الأولى.

بطل لا يُنسى.. صلاح حواش:

إن الدروس المستفادة من حرب أكتوبر تتعلق بقدرات الأبطال وإيمانهم أكثر مما تتعلق بالآلات التي يستخدمونها، مثل «وحدات المظلات» المصرية التي لعبت دوراً هاماً في خطة الخداع الاستراتيجي للعدو الإسرائيلي في الإعداد لعملية العبور، كما كانت هناك العديد من التحركات للوحدات المنفذة، لتأكيد هذا الخداع، بالإضافة إلى مهام التأمين ضد أي ردود فعل عدائية أثناء عبور قواتنا من سيناء، بالتزامن مع تواجد كتيبة هاون، وأخرى في القنطرة غرب، وفي منطقة الفردان، بما يعكس دور القيادة العامة للقوات المسلحة في أهمية تأمين كل الجبهات والمناطق الحدودية قبل وأثناء سير المعركة، وقد تولت «وحدات مظلية» أخرى عمليات الهجوم وتدمير قوات العدو في مضيقي متلا والجدي، والاستيلاء عليهما وتأمينهما، لتسهيل تقدم قواتنا، ومنع تقدم العدو من خلالهما.

سجد على الرمال بوصوله أرض الفيروز شكراً لله تعالى:

في السادس من أكتوبر عام ١٩٧٣م، عبر البطل صلاح عبد السلام حواش مع جنوده قناة السويس، وبمجرد أن وصل إلى أرض سيناء، قام وسجد على الرمال شكراً لله تعالى، وكانت مهمة الكتيبة ٤١ فهد هو قطع الطريق على الدبابات الإسرائيلية، ومواجهتها، وتدميرها، وقاتلت الكتيبة بضراوة دفاعاً عن منطقة الفردان.

رفع العلم المصري في سيناء بعد العبور

لقد شُنَّت علينا هذه الحرب بأسلحة مفزعة مثل الصواريخ المضادة للدبابات التي كانت تُحيل الدبابات للهيب مشتعل و تعجن أطقمها داخلها لدرجة يستحيل معها التعرف على هوياتهم

جولدا مائير

وفي ثالث يوم للحرب، الثاني عشر من شهر رمضان لعام ١٣٩٣هـ – الثامن من شهر أكتوبر ١٩٧٣م، اكتشف البطل صلاح حواش عدداً من الدبابات الإسرائيلية تندفع من العمق على طريق العريش الفردان، وعلى الفور اتصل بالبطل العميد حسن أبو سعدة، قائد الفرقة الثانية مشاة، فأمر برصد الدبابات الإسرائيلية، وإفساح الطريق لها، ثم التعامل معها، وبالفعل قام البطل الرائد «صلاح حواش» قائد صائدي الدبابات، بتوزيع رجاله على عدد من المواقع، وأثناء تقدم اللواء ١٩٠مدرع الإسرائيلي بقيادة القائد الإسرائيلي عساف ياجوري، تعامل الأبطال مع الدبابات الإسرائيلية، ودارت معركة طاحنة، حيث تم تدمير اللواء ١٩٠ مدرع الإسرائيلي، وتم أسر قائدهم «عساف ياجوري».

المصري صائد الدبابات ورعب في عيون الإسرائيليين:

من الجنود الأبطال الذين عملوا تحت قيادة البطل «صلاح حواش»، البطل محمد المصري صاحب الرقم القياسي العالمي في اصطياد الدبابات برصيد ٢٧ دبابة، ومن الدبابات التي دمرها دبابة عساف ياجوري، وكذا البطل «عبد المعطي عيسى» صاحب الرقم القياسي العالمي الثاني برصيد ٢٦ دبابة، وليست الدبابات الإسرائيلية فقط التي دُمِّرت، بل انهيار معنويات الإسرائيليين أنفسهم، فقد سيطر عليهم الرعب والفزع كأنهم يشاهدون فيلماً سينمائياً مرعباً، وها هي الصاعقة المصرية التي أظهرت الشجاعة والبسالة والفداء من أجل مصرنا الحبيبة، ومعها لم يجد العدو الإسرائيلي إلا الانسحاب مذعورا نحو الشرق كدليل لا يقبل الشك على صلابة القوات المصرية رغم فارق العدة والعتاد.

أبلغني موشى ديان في اليوم الثاني للحرب، أن الموقف في سيناء وصل إلى درجة من السوء إلى حد أننا يجب أن نقوم بانسحاب جذري واستمعت إليه في فزع، وأعتقد أنني لو لم أتعلم خلال سنوات عمري كيف أكون قوية، لكنت قد تحطَّمتُ تمامًا.

جولدا مائير ٧ أكتوبر ١٩٧٣م

ملحمة بطولية سطرها المصريون..... صد الهجمات الإسرائيلية المضادة:

في السابع من أكتوبر تكبَّدت القوات الإسرائيلية الكثير من الخسائر، وبدأ العدو بهجوم مضاد صباح يوم الإثنين ٨ أكتوبر على منطقة رؤوس الكباري المصرية شرق القناة ولكن القوات المصرية تصدَّت لها وكبَّدت العدو خسائر فادحة، وعليه فكان هذا اليوم يوماً ناجحاً للقوات المصرية، ونتج عن الهجوم المصري مئات القتلى والمصابين والأسرى الإسرائيليين الذين كان على رأسهم العقيد عساف ياجوري قائد إحدى كتائب الدبابات، كما خسر العدو مئات الدبابات.

فزع ورعب في إسرائيل واستغاثة جولدا مائير بأمريكا:

لاستكمال تحقيق المهمة الأساسية للقوات المسلحة، فقد تم تطوير الهجوم شرقاً للاستيلاء على الخط العام بعمق ٨-١٠ كم شرق القناة مع تدمير وتصفية جميع النقاط القوية للعدو، وقد تم تحرير مدينة القنطرة شرق ورفع الأعلام المصرية على أبنيتها.

هذا وقد استغاثت جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل برئيس الولايات المتحدة الأمريكية «ريتشارد نيكسون»، فأقامت أمريكا لطفلها المدلل أكبر جسر جوي عرفه التاريخ، وقد حاول العدو اختراق الدفاعات الجوية المصرية لكنه فشل وفقد جميع حصون خط بارليف فيما عدا حصن بودابست شرق مدينة بور فؤاد، وتمكَّنت القوات المصرية من الوصول إلى عمق ١٢-١٥ كم شرق القناة وبذلك تحققت المهمة الأساسية للقوات المسلحة هذا وقد تصدت القوات الجوية المصرية بنجاح لهجمات طيران العدو الإسرائيلي.

يا محمد أنا اخترتك علشان تكون مُوَجِّه صواريخ.. وأملي فيك كبير جداً

صلاح حواش

ها هو البطل محمد إبراهيم المصري، صائد الدبابات يروي قائلاً: كنا مجموعة مُكوَّنة من (٣) أفراد والقائد، أنا حكمدار الطاقم ومعي جهاز إطلاق الصواريخ وبرفقتي إبراهيم صابر إبراهيم، وماهر حافظ صليب كل منهما يمتلك خطا للنيران به أربعة صواريخ، وقائدنا الشهيد صلاح حواش، يستطرد قائلاً «لا أنسى اليوم الذي شرفني فيه قائدي البطل الرائد صلاح حواش باختياري ضمن الموجِّهين للصواريخ، فقد وقفت مع زملائي

الجنود في صف واحد ثم قام بالمرور علينا وتصنيفنا واختيار الموجِّهين الأساسيين، وبعد ذلك استدعاني وقال: «يا محمد أنا اخترتك علشان تكون مُوَجِّه صواريخ وأملي فيك كبير جدا»، لقد توطدت العلاقة بيني وبين قائدي، فلم يكن قائداً فقط، بل كان أخاً عزيزاً، وكان يحرص على جزئيات ربما يغفل عنها الكثير؛ فلم يحدث مرة أن تناول طعامه قبلنا بل كان يتأكد من أن الجنود تناولوا وجباتهم، وكان يناقش مشاكلنا حتى الشخصية منها، فهو عملة نادرة الوجود، ومصرياً صميماً.

يقول لنا: لا إله إلا الله، فنرد عليه: محمد رسول الله:

وبعد اقتحام قناة السويس يوم السادس من أكتوبر ١٩٧٣م اتفق معنا على شفرة محددة نتلقى بها الأوامر بالضرب على الدبابات الإسرائيلية، حيث كان يضع مُصحفاً شريفاً في الجيب الأيمن بسترته، وكانت الشفرة أننا حينما نرى الزر الأيمن للسترة مفتوحاً نسارع بعملية الإطلاق والضرب، ويقول لنا: لا إله إلا الله، فنرد عليه: محمد رسول الله، ثم جاء اليوم المشهود يوم الثامن من أكتوبر ١٩٧٣م كانت مهمتنا في هذا اليوم وقف مرور الدبابات الإسرائيلية المتجهة نحو كوبري الفردان.

كان يمد يده لي بالمياه وألتفت إليه..... لم أجده بجانبي ووجدته أشلاء

ويستطرد المصري قائلاً: كنت مع قائدي البطل «صلاح حواش» في حفرة واحدة، وبدأت مهمتي مع ظهور الدبابات الإسرائيلية، وقد قمت بتدمير أول دبابة إسرائيلية، ولا أنسى هتاف البطل «صلاح حواش» بعد أول دبابة أصبتها قال لي: مسطرة يا مصري مسطرة، بمعنى أن خط المرور من القاعدة إلى الدبابة مثل الخط المستقيم، ثم توالت الدبابات التي أصيبها، وشهدت بداية «المصري»، تدمير دبابة العقيد «عساف ياجوري» قائد اللواء ١٩٠ مدرع الإسرائيلي في ذلك الوقت (وقد خرج المصري من معارك الدبابات بغنيمة وصلت إلى تدمير ٢٧ دبابة إسرائيلية، استخدم لإصابتها ٣٠ صاروخاً، وهو رقم قياسي عالمي)، وفي هذا الصدد قد خرج تقرير البنتاجون الأمريكي في فبراير عام ١٩٧٤م يوضح بأنه لأول مرة في تاريخ الحروب الحديثة مجموعة لا تتعدى ٣ أفراد تُدمِّر هذا الكم من الدبابات، كان في حرب أكتوبر في أرض سيناء على أيدي أولاد مصر، ويستطرد «المصري» قائلاً: إنه فى إحدى المرات وبعد أن أصبت دبابة كان القائد يعطيني شربة ماء، وبعد أن التفت إليه لم أجده بجانبي ووجدته أشلاء بعد أن أصابته دانة.

صائدو الدبابات

(ليس البترول العربي أغلى وأثـمن من الدم المصري العربي) زايد آل نهيان:

ومن الجنود الأبطال أيضا الذين عملوا تحت قيادة البطل صلاح حواش، البطل عبد المعطي عبد الله عيسى صاحب الرقم القياسي العالمي الثاني برصيد ٢٦ دبابة، ويقول: بعد عبورنا قناة السويس تقدمنا إلى الأمام داخل سيناء لمسافة ٢ كيلو متر فإذا بمجموعة من الدبابات الإسرائيلية تظهر لنا، وهنا أصدر القائد أوامره بالتعامل معها وقمت بتدمير ثلاث دبابات، لذا زادت ثقتي بنفسي وقائدي وسلاحي، وتمنيت بعدها أن أحطم كل دبابة إسرائيلية تقع تحت ناظري، وهذا ما حدث بالفعل.

نهاية الرحلة القصيرة من حياة البطل صلاح حواش:

وفي الثامن من أكتوبر ١٩٧٣م، استشهد البطل صلاح حواش، بعد إصابته بشظية في صدره، وكانت آخر كلماته قوله للبطل محمد المصري: «مصر أمانة بين أيديكم يا مصري»، وهكذا استشهد البطل الرائد صلاح حواش بعد أن قاد جنوده إلى تدمير ٦٣ دبابة إسرائيلية... لا تبك فاليوم بدأ حياته، إن الشهيد يعيش يوم مماته كشروق الشمس يتوقف عنده الزمن، ويحيا الأبطال في مقابر شهداء الجيش الثاني الميداني بالإسماعيلية.

ويسدل الستار في أحد أيام شهر أكتوبر الذي لا أتذكره بالتحديد، مع قدوم الليل، ونحن جالسين في بيتنا سمعنا صوت طرق عنيف يكاد أن يحطم باب الشقة وقبل أن نفتح الباب، سمعنا صوت جارتنا طنط «ملكة» تقول صلاح مات – صلاح استُشهد،

وعندما سمعت باستشهاده أخذت أبكي وانهمرت الدموع من عيني، وتذكرته وهو يقول لي، مصر نفديها بدمائنا وأرواحنا، فتحنا الباب وقالت لأمي: حاقول لنجوى أيه؟ (زوجته)، وسادت لحظة من الصمت، ثم انهمر الجميع في بكاء متواصل، لم أفكر وقتها في زوجته وطفليه بعمر سنة، وسنتين، قدر ما كنت أتذكر كلماته لي: «نحن نفتدي وطننا العزيز بدمائنا وأرواحنا» صدقت أيها البطل، صدقت وصدق كل أبطال مصر الذين خاضوا معركة الكرامة والنصر، في جنة الفردوس الأعلى.

الجردل وعربة الفول

(إذا بدأ أي شعب بإنتاج وصناعة النكتة، فاعلم أنه بدأ يشعر بالجوع والفقر)

كير كيغارد

هل يصنع الفقر لصوصاً، كما يصنع الحب شعراء.....؟ كما جاء في مثلٍ هندي، أتفق واختلف مع هذا المثل، فأتفق في أن الحب يولد من خلاله الشعر، ويُولِّد الأحاسيس والمشاعر الجميلة، وكذا مشاعر العذاب والآلام، كالمرأة التي تضع مولوداً، وأختلف في أن الفقر يصنع لصوصاً، بل على النقيض من ذلك تماماً، فإذا كان الفقر يُشعر صاحبه بالمعاناة، فإنه يتمخض عنه أفكار عديدة من خلالها يستطيع المرء التغلُّب على هذه المعاناة بل والتخلص من الفقر ذاته، كما تولد «النكتة» من رحم الجوع والفقر، والتي تهيم بين الأبراج العالية، وبين الحطام والأطلال، كما تغزو العقول النائمة، وتزرع الخوف في العقول الهائمة، أما اللصوصية فهي شي مستثناه، وموضوع «الجردل وعربة الفول» يرد على هذا المثل، فأصحاب عربات الفول المنتشرة في جنبات العاصمة المعزِّيَّة انتقلوا من المعاناة إلى السعادة... من الفقر إلى الغنى.

كان يوم حار شديد الرطوبة – يوم الثلاثاء الموافق الرابع عشر من سبتمبر سنة ٢٠٢٠م، رغم أنه شهر بداية الخريف إلا أن شدة الحرارة نتيجة تغير المناخ الذي سببه التلوث العالمي بصفة عامة وتلوث القاهرة بصفة خاصة، في حوالي الساعة الحادية عشرة صباحاً كنت متوجهاً إلى السجل المدني بقسم مدينة نصر أول، لقد عانيت لكي أجد مكاناً أركن فيه السيارة، وطبعاً هناك أماكن على الجانب الآخر من الطريق، لكن من الصعب أن أفكر في هذا الجانب، لصعوبة تخطي الطريق بسبب سرعة السيارات الصاعدة والهابطة لكوبري عباس العقاد، وهذا حقهم، لكن يبقى السؤال: أين حق المواطنين الذين يريدون اجتياز الطرق؟، وعلى هذا التطوير العظيم ينقصه إشارة مرور للمشاة.

ثم توجَّهتُ إلى الشارع الخلفي للقسم وحاولت أن أجد مكاناً لركن السيارة وأنهي المصلحة التي أتيت من أجلها، لكن هيهات، أين هذا المكان العبقري الذي يهبط من

السماء لينقذني؟، لم أجد سوى مكان كبير يسع لثلاث سيارات ولكن يشغله صاحب عربة فول تقف شامخة بكل كبرياء على الرصيف، وفي الشارع كان يوجد ترابيزات وكراسي، مشهد ليس له مثيلٍ في العالم، لا تجده إلا في مصر، هذا وطلبت من صاحب العربة أن يُبعد الكراسي قليلاً لكي أركن السيارة، لكنه لم يرد في البداية، ونظر إليَّ نظرة حادة كنظرة «عين العقاب» الذي يستطيع مراقبة الأرنب عن بعد أكثر من ٣ كم، لكني أوقفت سيارتي أمام الكراسي وبالطبع لم يعجبه وطلب مني بصوت غليظ أن آخذ سيارتي وأذهب، بل قال لي: شوف أنت سواق عند مين؟ ونزلت وأغلقت السيارة، بدأ يصيح بصوت عالٍ كما تلفظ للأسف ببعض الألفاظ النابية، رغم أن هذا الرجل مغتصب حق ليس حقه، بل هو حق المواطنين في الرصيف والشارع، ملكية عامة ينتفع بها الجميع، إلا أنه اعتبر نفسه مالكاً لهذا المكان وصاحبه، كما أن هذا الرجل لا يكتفي بعربة الفول، بل وضع أنبوب بوتوجاز على الرصيف لعمل الطعمية وغيرها، وهذا شديد الخطورة على المواطنين، فمن الأهمية بمكان أن ندرك تلك الخطورة التي تهدد المارة بل وسكان الشارع، فلا نريد: معلش، أو قضاء وقدر، رغم أنَّ الخطأ واضح، والمتسبب واضح، ورئيس الحي غير واضح.

ولم يكن أمامي سوى التوجه للقسم لعمل محضر له، وليس لإتمام ما كنت أريد عمله في القسم، وتم عمل محضر لهذا الرجل، والحقيقة أن السادة الضباط الذين قابلتهم قد أثنوا على كلامي ووعدوني بإبلاغ شرطة المرافق المسئولة عن ذلك، طبعاً المسئولية المباشرة تقع على كاهل رؤساء الأحياء، لذا لم أنجز ما أريده وعدت إلى البيت وأنا أحمل رقم المحضر فقط.

تطوُّر عربة الفول:

مولد عربة الفول – كانت في مهدها لوح من الخشب في بداية عهدها، كانت عربة الفول عبارة عن لوح خشبي، ممدد على الرصيف، يجلس البائع خلفه، ويرص أطباقه عليه، ويجلس زبائنه أمامه متربعين جلستهم، ولم تكن هناك قدرة الفول، ومع مرور السنوات، رفع اللوح الخشبي أو المنضدة بحوامل خشبية، ليصبح أشبه بالطاولة، ولكن لصغر حجمها وقف الزبائن في طابور انتظارا لدورهم،

فلم تسعهم العربة، ثم اتجه البائعون لزيادة مساحة المنضدة لجذب زبائن أكثر دون خسارتهم بسبب سخطهم من الازدحام، ومع انتشار صناعة عربات الكارو الخشبية، استعان أصحاب العربات بالعجلات لتسهيل تنقلهم وحمل بضاعتهم، فأدخلوا على عربات الفول العجل، ثم تفننوا وأبدعوا في صناعة العربات، حتى استقروا على شكلها الذي نعهده اليوم، عربات خشبية طويلة بأربع عجلات، صمم بداخلها مكان لاحتواء قدرة الفول، ورف لوضع أطباق الفلافل والبطاطس، ومن الخارج وضع رف ليكون بمثابة المائدة ليأكل الزبائن عليها، كما ظهرت ورش لصناعة عربات الفول وتصليح القديم منها، أو إعادة هيكلته، ولكن بطبع المصريين يميلون إلى عربة الفول ذات الطابع القديم بالرغم من كل التغييرات التي تطرأ عليها.

عربة فول في بدايات القرن العشرين:

يُعد هذا الموضوع خارج نطاق المنطق واتخذ صفة الشرعية المكتسبة، شرعية بلا شرعية، أصبحت ظاهرة عامة ويمكن أن نصفها بالظاهرة الفولية المكررة كل صباح ما عدا أيام العطلات، لكني لا أعتقد ذلك، لقد أصبح الوضع مقزز للغاية، كأن وجبة الفول التي يتناولها معظم المواطنين في الشارع هي أكسير الحياة، ماذا يحدث لو تناولها في بيته؟، كأن الشارع وصفة سحرية تعطيه القوة وتمنحه الأسبقية في أداء عمله، وصلنا إلى أن بين كل عربة فول والأخرى عربة فول، يبدو أن عربة الفول والأخرى تعطي المواطنين أمان للغد.

عربة الفول هي الحلم الوردي للوافدين إلى العاصمة:

لذا ظهور عربة الفول في بيئات جديدة، فكان ولا يزال كل فرد يرى في عربته أو مساحته الخاصة منطقة حرية، فهو يعتبرها ملكية خاصة يمكنه أن يخرج فيها من حالته الاقتصادية والاجتماعية، بمعنى أن يفعل فيها ما يشاء، وكل فرد يفعل ذلك بمنظوره المختلف طبقاً لخبراته السابقة وأوجاعه وهمومه واهتمامه، إلا أن هؤلاء هم

القادمون من قرى ونجوع المحافظات المختلفة، يجدون تلك العربة الملاذ لهم بل والحلم الوردي الذي طالما تَمنَّوْا أن يتحقق.

(إياك أن تندهش عندما ترى بنت أو سيدة تأكل من عربة الفول، الفول متاح للجميع لا للتفرقة – لا للعنصرية):

لأن معظم الشعب وجبته الأساسية هي الفول في الصباح، (دائماً يقولون هو الذي يصمد)، أو (أسمنت المعدة)، لذا فالكثير من الرجال والأطفال والنساء يتناولون وجبة الإفطار من عربة الفول، نحن لسنا ضد الفول، لكن ضد إشغال الطريق، ضد استغلال الأرصفة والشوارع والميادين ضد العربات التي تقف أمام الشركات والمؤسسات الحكومية وغيرها، ضد التلوث والمنظر القبيح والروائح الكريهة، ضد مسببات الأمراض، ضد من يغض الطرف عن ذلك، ويمد يده للرشوة، نحن ضد الفساد كل الفساد، ضد كل من تُسوِّل له نفسه ويفسد في بلدنا الجميلة دائما، كونها مصر، لكن جمالها عليه غبار كثير، أين القاهرة التي كانت من أجمل مدن العالم في العشرينيات والثلاثينيات والأربعينيات من القرن المنصرم؟ أين هي؟

(لو نفسك تآكل السلطة – طماطم وخيار من غير غسيل – ما فيش مانع ولو هاتموت ما هو إنت كده كده هاتموت):

هناك تحذير شديد اللهجة للزبائن بعدم طلب تغيير الخبز علشان مبلول والرد هو ده اللي عندنا إن كان عاجبك..... ومن الممكن أن نضيف إلى ذلك ونقول: دعك من الفول والسلطة كيف يتم عملها؟ فلتتغاضَ عن ذلك، إذا تحدثنا عن الأطباق التي يأكل فيها الناس، كيف يتم غسيلها؟ يتم غسيلها من خلال الجردل، وإذا شاهدتها وأنت منتبه ستنتهي علاقتك بعربة الفول، لأنه يتم غسيلها في جردل، وما أدراك ما الجردل، بعيد كل البعد عن النظافة ومياهه لا تتغير، فهي مياه راكدة لا تتغير، لأنه في الأصل لا توجد مياه ولا تتوافر، فالجردل كائن ظهر على رصيف الشارع، فهل يحمل الرصيف مياه؟ هذا هو الواقع المرير المرئي الذي لا يصل إلى زبون العربة، الأفضل أغمض عينيك، والولد الذي يبيع الفول ويقوم بعمل السندوتشات، ماذا يكون شكل يديه؟ وإذا قلنا ليس

من المهم يداه، ويذهب إلى محل الأدب، ثم يعود يواصل عمله ومن ثم يقوم بصناعة السندوتشات، ودائماً ما يمسح أنفه بيده، يا تُرى ماذا يكون شكل يديه؟ كما تتجمع في راحة يده وبين أظافره الجراثيم التي تفوق تجمعات النحل والنمل وتجمعات الجيوش أثناء الحروب، أيضاً ليس مهم.....

العبارات التي تجذب الناس إلى عربة الفول:

تُعد عربات الفول المنتشرة في الشوارع، بتصميمها المعروف، وألوانها التي لا تخرج عن الأحمر والأخضر، من أكثر الأماكن التي يمكن ملاحظة هذه العبارات الفكاهية عليها، لكن يظل أشهرها (إن خلص الفول... أنا مش مسؤول)... وهي عبارة تدعو قارئها للإسراع في تناول الفول قبل أن يلتهمه الآخرون، وكذلك (كُل فول وصلِّ عالرسول)، ...(فول مدمس... تعالى وغمس)، و(لو عايز الفول كلمني على المحمول)... (كل الفول من عروسة الفيوم)

هل هو الجردل أم بائع الفول أم الأطباق أم هو الزبون الذي يرتاد يوميا لنهم الفول؟

يا عم دلوقتي... وديع زي وضيع هو هو... ما فيش أي فرق.....

وتلجأ عربات أخرى إلى تحريف أغنية شهيرة أو مقولة صامتة، وأبرزها(ما خطرتش على بالك يوم... تفطر عندي)... وهي مستوحاة من أغنية يا مسهرني، لـــ كوكب الشرق «أم كلثوم» أو استخدام مقطع أغنية كما هي، مثل: (يا حلو صبح... يا حلو طل)... لمحمد قنديل، وذلك في إشارة إلى أهمية الفول للناس كل صباح.... ويلجأ البعض لكتابة أدعية وأذكار، مثل: (صلِّ على النبي)... (يا رب سترك) ...(اذكر الله... (سبحان الله)... (توكلت على الله) ...(الله أكبر)... كما تم تداول أغاني عن الفول مثل: (فيها حاجة حلوة)... هذا بالإضافة إلى الأمثال الشعبية، مثل: (يا بركة دعاء الوالدين)... (الصبر طيب يا بني آدمين) ...(الصبر مفتاح الفرج) ...(كده رضا) .... (عضة أسد ولا نظرة حسد)... (إيه يعمل الحاسد في الرازق) ...

ويتفق أصحاب عربات الفول أن هذه العبارات تكون محاولة لجذب المواطنين إلى الفول، الأكلة الشعبية الأولى، مهما اختلفت أعمارهم أو وظائفهم أو مستوياتهم

الاجتماعية، يؤكدون على أن مثل هذه العبارات «تفتح شهية» الناس لتناول الفول، بما تعكسه من روح الدعابة.

سوسيولوجية العبارات المعبِّرة على ما وصل إليه الفول من اهتمام الباعة والزبائن:

سوسيولوجية هذه العبارات المعبِّرة تُعد وسيلة تفاهم مشترك بين الناس عبر اللغة المكتوبة، يعيشونه يومياً مع وصول قمة الواقع المادي مع العبارات اللاماديَّة، ويعكس هذا مواقف حياتية ديناميكية وواقع ملموس، وكذلك تغيرات اجتماعية واقتصادية، وما نشاهده في وقتنا الراهن من كثرة هذه العبارات في شوارع وأرصفة قاهرة المعز هو نتاج الواقع الحالي، وتبدو طبيعية في إطارها عندما نتحدث عن الواقع المصري وما مر به من ثورات وتحولات اجتماعية.

طبق الفول مثل النكتة التي يتخلص من خلالها المرء من همومه:

الفئات الفقيرة وما تبقى من الطبقة المتوسطة يتخلصون من همومهم من خلال أغنية أو نكتة أو طبق الفول، تحاول أن تخرج همومها في أشياء بسيطة وإن انعكس ذلك على التلوث السمعي من خلال الأغاني الهابطة والتي قبلتها هذه الفئات، وهذا يعبر عن الحالة التي يعيشونها أو تنتابهم، بعكس الطبقات الأخرى التي يكون الواقع لديها مليئاً بتحولات واهتمامات أخرى، فتختلف حاجات الأفراد واهتماماتهم وفقاً للمستوى الاجتماعي والاقتصادي والثقافي.

وعربة الفول هذه مجرد نموذج لأشياء أخرى كثيرة سلبية بفعل المواطنين، والحل في يد المسئولين من رؤوساء أحياء ومحافظين، وكل مسئول، بل وكل المواطنين، فهذا مسئولية الجميع، ليتنا نكون يداً في يد لمنع كل من يُشَوِّه جمال المحروسة.

حتى لا ننسى اليوم الأسود
«الدولة الافتراضية»

الصهيونية عندما تتكلم: «عناقيد الغضب أطاحت بالنساء والأطفال والشيوخ والرجال أطاحت بالأخضر واليابس، أطاحت بالقيم والمبادئ، أطاحت بالأمن والسلام»:

قبل أن تخضع فلسطين للانتداب البريطاني كان هناك مخطط لإقامة وطن قومي لليهود في أرض فلسطين، فكان تصريح آرثر جيمس بلفور (Arthur James Balfour) وزير خارجية بريطانيا حينذاك بوعد اليهود بإقامة وطن لهم في فلسطين والتي أسماها الصهاينة بأرض الميعاد ولِمَ لا؟ فهم يعتقدون بأن لهم حق طبيعي وتاريخي بأرض فلسطين وكأنها كانت منذ أقدم التاريخ ملكاً لهم.

دُبِّرت المؤامرات بين الصهاينة وبريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية لزرع الكيان الصهيوني في أرض عربية خالصة، أرض فلسطين، وقامت بريطانيا بتمكين اليهود من هذه الأرض عن طريق بيع الأراضي العربية لليهود بالإكراه، وتمكينهم في الوظائف الحكومية، والسماح لهم بالهجرات المتتالية من أوروبا وروسيا، كما تضامنت الولايات المتحدة الأمريكية مع اليهود للتلاقي المزدوج بين مصالحهما.

ومن الأهمية أن نفرق بين الصهيونية اليهودية واليهود، فاليهود كانوا يعيشون في مصر ومختلف البلدان العربية جنبا إلى جنب مع المسلمين والمسيحيين ويعيشون حياة سلمية ترتكز على المواطنة، ولكن إذا توقفنا عند يهود مصر فقد انتهج الرئيس الراحل «جمال عبد الناصر» نهجاً غير سليم وقراراً متسرعاً قائمًا على المخاطرة ألا وهو إخراج يهود مصر من البلاد (رفض بعضهم الخروج من مصر حباً وعشقاً لبلادهم) مما ولَّد الحقد من هؤلاء بعد طردهم من مصر، أما الصهيونية هي التي اغتصبت أرض فلسطين وصاحبة المجازر التي قامت بها ليس في فلسطين فقط بل في العديد من البلدان العربية، فلا ننسى ما قام به الصهاينة الأشرار تجاه المصريين في فلسطين ومصر وسوريا والأردن ولبنان.

ونحن اليوم بصدد ذكرى أليمة علينا جميعاً وهي انتزاع أراض عربية وخلق كيان صهيوني يحتضن الزروع والصخور والرمال والمياه والهواء والسماء، وللحفاظ على وهم الصهيونية الكبير عملوا على استخدام العنف الدموي غير الإنساني فلا ننسى مجزرة «دير ياسين» في القدس في التاسع من أبريل من عام ١٩٤٨م، على يد جماعتين صهيونيتين، الأولى تعرف «بأرجون» وهي منظمة عسكرية يهودية تعني التكتل العسكري بمساعدة السلطات البريطانية وكانت منظمة إرهابية وقد نشأت عام ١٩٣١م قبل إعلان الدولة المزعومة بإسرائيل، أما الجماعة الثانية فهي جماعة «شتيرن» التي كانت من أكثر الميلشيات الصهيونية إجراماً وشراسة، وقد راح ضحية هذه المذبحة أكثر من ثلاثمائة وخمسين ضحية من الأطفال والنساء والشيوخ والشباب، وقد كانت تلك المذبحة العامل الرئيسي في هجرة الفلسطنيين إلى البلدان العربية المجاورة بسبب الخوف الذي انتاب سكان قرية دير ياسين، وكانت من إحدى أسباب الحرب بين العرب واليهود بعد إعلان اليهود قيام دولتهم وهي الدولة اللا دولة – الدولة الافتراضية – بعد إلغاء الانتداب البريطاني من فلسطين، فكانت مصر ولا زالت زعيمة العرب، وقلب الأمة العربية النابض، قد اتخذت قرار الحرب بزعامة الملك «فاروق الأول» ملك مصر والسودان رحمه الله، وهذه الحرب كانت في بدايتها في صالح العرب لولا تدخل مجلس الأمن بفرض الهدنة، والمساعدات التي قدمتها بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية لليهود، وكذا اختراق اليهود للهدنة أكثر من مرة فترتب على ذلك نجاح اليهود في الاستيلاء على معظم فلسطين عدا قطاع غزة والضفة الغربية والقدس القديم، وهنا نوضح أهمية تلك الحرب رغم الهزيمة على أقل تقدير، الملك فاروق نال شرف المحاولة، والتصدي لليهود والاعتداء الغاشم الذي تم بمساعدة بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية، على النقيض من هذا الموقف، موقف «حسني مبارك» الرئيس المخلوع الذي وقف موقف المتفرج عندما قام الاحتلال الصهيوني بحصار غزة عام ٢٠٠٧م، حتى أن بعض المفكرين ذهبوا إلى مشاركة مصر في هذا الحصار بشكل غير رسمي، حيث أغلقت معبر رفح المنفذ الوحيد للقطاع إلى العالم الخارجي بقرار من المخلوع ثم قيام الكيان الصهيوني بمجزرة ضد سكان غزة التي بدأت من يوم ٢٧ ديسمبر ٢٠٠٨م حتى ١٨ يناير ٢٠٠٩م، ورفض المخلوع فتح معبر رفح المصري رغم كل تلك المجازر.

مذبحة مدرسة بحر البقر (المذبحة الملعونة) هزت العالم:

لا ننسى يوم الثامن من شهر أبريل لعام ١٩٧٠م قصفت القوات الجوية الصهيونية مدرسة بحر البقر بمحافظة الشرقية في مصر ونتج عن هذا الاعتداء استشهاد ثلاثين تلميذًا وإصابة خمسين آخرين، وقد عقَّب الطيار «آمي حاييم» الذي ضرب مدرسة بحر البقر وقال «كنا نعلم أنها مدرسة للأطفال وأردنا توصيل رسالة للمصريين أن أطفالكم هم ثمن جديد ستدفعونه»، لكنه لو يعرف المصريين حق المعرفة، لكان أدرك من هم المصريون بعد حرب ١٩٧٣م، وعبور قناة السويس وتحطيم خط بارليف.

ماذا فعل العالم جراء انتهاكات إسرائيل للإنسانية؟ الإجابة: لا شيء، خوف وجبن ورعب إسرائيل هو ما يجعلها تقوم بتلك الأعمال الوحشية – المُخزية، «لا ولن ننسى إجرام الصهيونية» إنه في يوم ٨ أبريل عام ١٩٧٠م ... وفي صباح هذا اليوم قام الصهاينة بمجزرة جوية ضد مدرسة بحر البقر الابتدائية (مركز الحسينية بمحافظة الشرقية)، قصف جوي من طائرات فانتوم الأمريكية على المدرسة مما نتج عنه استشهاد ٣٠ طفلًا كانوا يتمتعون بنعومة أظافرهم، وجرح أكثر من ٥٠ طفلًا آخرين... وتدمير مبنى المدرسة بنسبة ١٠٠٪... لم يتبقَّ سوى الكراس والقلم... نحن لا ننسى عدونا لأن أطفالنا... دماءنا... أرواحنا... هم كل مشاعرنا وأحاسيسنا فأنتم معنا فالشيء الوحيد الذي لا ننساه هو أنتم... أنتم يا ساكني الجنة، وبعد الجريمة الشنعاء سطر الشاعر «صلاح جاهين» قصيدة الدرس انتهى وجاء فيها:

الدرس انتهى لموا الكراريس — بالدم اللي على ورقهم سال
في قصر الأمم المتحدة — مسابقة لرسوم الأطفال
إيه رأيك في البقع الحمرا — يا ضمير العالم يا عزيزي
دي لطفلة مصرية وسمرا — كانت من أشطر تلاميذي

دمها راسم زهرة.. راسم راية ثورة.. راسم وجه مؤامرة.. راسم خلق جبارة
راسم نار.. راسم عار عالصهيونية والاستعمار
والدنيا اللي عليهم صابرة
وساكتة على فعل الأباليس
الدرس انتهى لموا الكراريس ..
يا بلادي.. يا بلادي.. أنا بحبك يا بلادي

مذبحة مدرسة بحر البقر

مجزرة قانا الأولى ١٨ ابريل ١٩٩٦م:

هل سافرت الأخزان بالعناقيد؟ أم أنها وصلت إلى محطة اللا زمان .....

في الثامن عشر من شهر أبريل لعام ١٩٩٦م قام الصهاينة بقصف المقر (مركز القوات الدولية في جنوب لبنان) الذي لجأ إليه المدنون اللبنانيون في قرية قانا بجنوب لبنان عند هروبهم من عملية عناقيد الغضب التي شنها الصهاينة على لبنان، وهروباً من عناقيد الغضب لجأ مجموعة من أهالي المدنيين إلى معسكر للأمم المتحدة في بلدة قانا، وهي إحدى أكبر البلدات الجنوبية في صور، لحماية حياة الأطفال والنساء والشيوخ، ظناً منهم أن القوات الإسرائيلية لا تُقدم على قصف مراكز قوات الطوارئ الدولية التابعة للأمم المتحدة، لذا يُعد هذا الموقع حماية آمنة لهم، وأنه سيكون بمنأى عن نيران إسرائيل، احتراماً لعلم الأمم المتحدة، إلا أنه في الساعة الثانية بعد ظهر ١٨ أبريل ١٩٩٦م، أطلقت المدفعية الإسرائيلية المتمركزة على الحدود اللبنانية الإسرائيلية قذائف بعيدة المدى من عيار ١٥٥ ملم، ١٧ قذيفة على القاعدة المترامية الأطراف لقوة حفظ السلام الدولية في قانا الكبيرة، انفجرت بعض القذائف قبل ارتطامه بالأرض وعلى ارتفاع حوالي سبعة أمتار منها، في الجو فوق الهدف. ونتج عن ذلك قتل أكثر من مائة من الأطفال والنساء والرجال الذين كانوا لجأوا هناك، وأصيب بعض الناجين إصابات بالغة الخطورة، ووصلوا إلى المستشفيات المحلية بأجساد مشوهة ومحروقة ومصابة بشظايا، ويرجع العدد المرتفع للضحايا إلى نوع القذائف التي كانت أكثرها من القذائف

التي تنفجر في الجو فوق الهدف، كل هذا ولم يعتر المجتمع الدولي أي اهتمام، وتعمده عدم سماع صرخات الأطفال والنساء.

جرح قانا عميق وغائر لا ينسى:

وهذا الاعتداء الوحشي أدى إلى مقتل مائة وست من المدنيين، وكانت جنازتهم مهيبة هزت العالم، وقد شاهدت تلك الجنازة أمام شاشات التليفزيون، وكنت متواجدًا حينها في المملكة العربية السعودية، ولم أتمالك نفسي من البكاء الذي لم ينقطع، وتساقطت دموعي بشدة كأنها أمطار أطلس الشتوية، ورغم شدة بكائي إلا أن بكاء قلبي كان أضعاف أضعاف بكاء عيني، فقد اعتصر قلبي من شدة الحزن جراء الأعمال الوحشية المجردة من الإنسانية التي قام بها هؤلاء الصهاينة، وكان ثمار هذا الإجرام، إصابة نحو مائة وستة عشر آخرين.

سفاح مجزرة قانا شمعون بيريز:

عبر شمعون بيريز رئيس وزراء إسرائيل وقتئذ وقال «إن الجيش الإسرائيلي لم يكن على علم بوجود مدنيين في مقر الأمم المتحدة»، أعتقد أن بيريز كان يمزح، أو نكتة بايخة قالها ليس لها موضع، إلا أنه في حقيقة الأمر كان شخصاً وضيعاً، تجرد من كل معاني الإنسانية، تلطخت يده بدماء الأبرياء، والعجيب أنه لم تتخذ كافة الهيئات الدولية أي إجراء تجاه هذا المجرم، كأن حكم أخطأ أو تعمد الخطأ في مباراة كرة قدم، ورغم هذا يؤكد الجنرال «موشيه إيلون» رئيس الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية، «على أن ضباط الجيش الإسرائيلي علموا بوجود لاجئين مدنيين في مركز الأمم المتحدة، لذا يتضح لنا وضوح الشمس، عصف إسرائيل بالأمم المتحدة، ولِمَ لا وهي تتمتع بحصانة الفيتو الأمريكي.

المشاهد الأليمة:

جنازة شهداء قانا

مجزرة قانا الثانية ٣٠ يوليو ٢٠٠٦م:

ها هم الصهاينة الأشرار يكررون مذبحة قانا الثانية بعد عشر سنوات من المذبحة الأولى، في ٣٠ يوليه من عام ٢٠٠٦م عندما قصفوا مبنى سكنياً مُكونًا من ثلاثة طوابق راح ضحيته نحو خمسة وخمسين شهيداً من بينهم سبعة وعشرون طفلاً، الذين لجؤوا إلى بلدة قانا بعد أن نزحوا من قرى مجاورة تتعرض للعدوان والقصف الإسرائيلي، بالإضافة إلى سكان المبنى، وقد قصفت إسرائيل المدينة للمرة الثانية، وكان رئيس وزراء إسرائيل وقتئذ «إيهود أولمرت» الذي تولى بالوكالة عن المجرم شارون، وكم من مجرمين إسرائليين ارتكبوا فظائع وأعمال وحشية ضد الإنسانية.

وقد نُفذت الغارة الجوية باستخدام قنبلتين، واحدة منها على الأقل كانت موجهة بدقة، والتي تم إسقاطها بعد الواحدة من صباح ٣٠ يوليو، وأسقطت القنبلة الثانية بعد ١٥ دقيقة تقريباً من إلقاء القنبلة الأولى، وأسفرت الغارة عن مقتل العديد من أفراد العائلات كانوا يحتمون من القصف في مرآباً تحت الأرض أسفل مبنى سكني من ثلاثة طوابق، وقد أشارت التقارير الإخبارية الأولية إلى أن العائلات كانت نائمة عندما أُسقطت القنبلتان على المبنى، بينما زعمت إسرائيل بتوجيهها إنذاراً إلى سكان جنوب لبنان بالهرب من منطقة النزاع، إلا أن الطرق خارج المنطقة كانت تئن من القصف الإسرائيلي، وقال أحد الناجين من القصف إن الهجمات على الطرق خارج قانا منعت العائلات من المغادرة، وجاء في واشنطن بوست أنه يوم الهجوم: «معظم القتلى كانوا عالقين وسط الحطام. وكانت أجسادهم سليمة، فكان من بين الجثث شاب يرفع ذراعه طلباً للمساعدة، ورجل مُسن يستغيث، وطفل عمره ١٢ عاماً ملقى في وضع الجنين، وآخر جالس على الأرض ويده اليمنى مكسورة، وآخر قُتلت زوجته وأمه، وآخرون قد فقدوا أبناءهم، ورجل يصرخ لمقتل ابنتيه الطفلتين.

(جثة طفلة رضيعة) (جثث أطفال في قانا الثانية)

ما من فعل مغاير للأخلاق، وما من جريمة بحق المجتمع إلا وللصهاينة يدًا فيها

هذا وقد اعترف الجيش الإسرائيلي بقصف المبنى، وكان قد نفى في البداية أن الانفجار الذي تسبب في الوفيات الجماعية كان نتيجة لهذا الهجوم، ونفى سكان قانا هذا الادعاء، وقالوا إن المبنى انهار بسبب القصف الإسرائيلي، وأكد المراقبون الدوليون والصحفيون أنه ليس هناك دليل على استخدام المبنى لأغراض عسكرية، وقد دعا كوفي عنان الأمين العام للأمم المتحدة (يناير ١٩٩٧م – ديسمبر ٢٠٠٦م)، مجلس الأمن الدولي إلى إدانة الهجوم.

وفي قصيدة للشاعر «نزار قباني» عبَّر فيها عن مأساة قانا فجاء فيها:

دخلوا قانا كأفواج ذئاب جائعة ... يشعلون النار في بيت المسيح
ويدوسون على ثوب الحسين ... وعلى أرض الجنوب الغالية
ورأينا الدمع في جفن علي ... وسمعنا صوته وهو يصلي...
تحت أمطار سماء دامية

كل من يكتب عن تاريخ (قانا)... سيسميها على أوراقه: (كربلاء الثانية)

وغير ذلك من المجازر التي قام بها الصهاينة، وها هو هتلر يقول عنهم: ما من فعل مغاير للأخلاق، وما من جريمة بحق المجتمع إلا وللصهاينة يدٌ فيها، وهم ضعفاء جبناء وأمام الأقوياء حقراء ومن دون مساعدات أذلاء لا يساوون شيئًا، لا يعرفون سوى الرصاص في صدور الأبرياء.

بالدماء البريئة يُكتب تاريخ قانا، ويقول للعالم ما أحقر الصهاينة، يا أطفال قانا، يا نساء قانا، يا شيوخ قانا، يا رجال قانا، هنيئاً لكم بيوم العرس، هنيئاً لكم بالفردوس، بالأبيض والأخضر تلبسون، وفي الجنة تسعدون، أما الصهاينة في سعير جهنم هم خالدون.

وتمضي ثلاثة وسبعون عاماً على اليوم الأسود، يوم إعلان الدولة الافتراضية، الدولة المزعومة بإسرائيل، الدولة التي قامت من نسيج الخيال... الأحلام، الدولة الضعيفة أمام الأقوياء، وحتى لا ننسى الحق العربي في فلسطين المحتلة ولكي تعلم الأجيال القادمة بهذا الحق نستطيع القول إن تلك الدولة الافتراضية مهما بلغت من قوة فهي ضعيفة وهشَّة والخوف يجعلها تموت ليس مرة واحدة بل مرات ومرات، كل أيامها ترتجف لا تقوى على فعل شيء أي شيء مهما احتضنتها أمريكا، مهما قتلت النساء والأطفال، فهي تذبل، ما تتوقع لدولة جبانة، فاليوم آت وسوف تشرق شمس الحرية وينعم شعب فلسطين بالمجد والاستقلال.

رحلوا فداءً للوطن

الأمير طوسون بن محمد علي:

«ليس لكم يا أولادي وطن غير مصر، فإن لم تسلكوا سبيلي وتتبعوا خطواتي، فلا عز لكم ولا علا، وأنا منكم بريء»
محمد علي باشا

منذ أن تولى «محمد علي» حكم مصر وهو يضع نصب عينيه الدولة الحديثة، فشرع في بنائها، وكان حبه الشديد لمصر جعله مصريا مدافعاً عن البلاد مضحياً بكل غال ونفيس من أجل وطنه وشعبه، فلم يتوان عن بذل الجهد والعطاء لرقي البلاد، حتى أبنائه الذين خاضوا المعارك وضحوا بأنفسهم، ولا ننسى الفاتح العظيم ابنه الأكبر إبراهيم باشا الذي كان يصول ويجول في ميادين المعارك التي خاضها من أجل رفعة البلاد، سواء لتأمين البلاد أو للتوسعات التي أرادها عزيز مصر لتكوين دولة عربية قوية تقوم على الرابطة العربية في مقابل الرابطة التركية، لذا جاز لنا أن نسطر بعضاً من تضحيات أبنيه الأمير أحمد طوسون، والأمير إسماعيل كامل، فالتاريخ يشهد مدى هذه التضحيات التي عاصرت فقدان أرواحهما، فرحلا فداءً للوطن، وما أصعب ما مر به «محمد علي» بفقدان ولديه، طوسون وإسماعيل، ما أصعب هذا على رجل عمل على نهضة الديار المصرية فكان لزاماً عليه أن يُنحي الحزن جانباً بعد طغيانه عليه لفترة ليست بالقصيرة، من أجل تحقيق غاياته لرفعة البلاد، ونقلها من الظلام والجهل إلى النور والعلم في فترة وجيزة فتحققت مساعيه وجهوده المضنية في بناء الدولة الحديثة في كل مناحي الحياة، فكان له ما أراد.

الأمير أحمد طوسون:

هو الابن الثاني لمحمد علي باشا وكان أحب أبنائهً لديه، وقد ولد أحمد طوسون بن محمد علي باشا عام ١٧٩١م وكان ابن محمد علي المفضل، وتوفي في ٢٩ سبتمبر عام ١٨١٦م، ولقد تميز بالعديد من الخصال الحميدة.

من صفات الأمير أحمد طوسون:

لقد تميز الأمير أحمد طوسون بن محمد علي باشا، بالعديد من الخصال الحميدة، ومنها كرمه الزائد، تواضعه مع جنوده، شجاعته، محباً للعلم، واسع الأفق، ذا بأس وحزم، محباً للخيرات، ومسارعاً في أعمال الخير الذي ورثه عن أمه «أمينة هانم».

قاد الأمير طوسون حملة عسكرية ضد الدولة السعودية الأولى والوهابيين، وكان يعاونه «أحمد أغا»، لتأديب وإخضاع الوهابيين الذين شقوا عصا الطاعة على السلطان العثماني، وخرجت حملته في ٢ أبريل ١٨١١م، (بعد مذبحة المماليك في القلعة)، تألفت الحملة من عشرة آلاف مقاتل منهم سبعة آلاف مشاة وألفان فارس، وكانت أولى حملاته ضد ينبع حيث قام باحتلالها وانطلق منها في عدة محاولات لاحتلال مكة، وبعد أن تمكن من إخراج الوهابيين من المدينة المنورة ومن مكة قام بإرسال مفاتيح الكعبة إلى والده محمد علي باشا ومن ثم قام بإرسالها إلى السلطان العثماني محمود الثاني، غير أن بقاء قوات طوسون في مكة لم يدم، فسرعان ما عادت جيوش نجد في عام ١٨١٣م لكي يخرجوا طوسون وجنده منها؛ لذا قاد محمد علي باشا بنفسه حملة ثانية، وكان معه قواته ونزل في مدينة جدة ثم قاد قواته ودخلوا مكة في عام ١٢٢٨هـ/١٨١٣م، وبعد أن أقام بمكة، مدة قصيرة، وأدى فريضة الحج عاد إلى مصر، وظل طوسون باشا وجنده يقاتلون أهل الجزيرة العربية وتقدم إلى منطقة نجد ولكن تراجعت قواته إلى المدينة المنورة حيث كان الدعم الذي يصلهم محدوداً جداً ولم تستطع قواته تحمل الحر والصحراء، في حين قامت القوات السعودية باسترجاع معظم المواقع في الجزيرة التي استولى عليها طوسون باشا، وعندما بلغ طوسون خبر الاضرابات في مصر قام بالعودة إلى ينبع ثم إلى السويس وعاد إلى القاهرة وسط احتفالاً كبيراً ثم ذهب إلى الإسكندرية حيث كان أبوه وابنه عباس بك الذي بلغ سنتين من العمر في انتظاره، لم يقم طوسون باشا بالإسكندرية مدة طويلة، ويذكر أن طوسون كان مع فرقته العسكرية خارج القاهرة بدمنهور حيث كان محمد علي يقسم الجنود لفرق ويوزعها بمختلف أنحاء مصر حتى لا يجتمعوا في القاهرة ويتمردوا.

(معارك طوسون في جزيرة العرب)

وهناك رواية أخرى وهي أن طوسون باشا كان من بين مصابي معركة تربة في شرق مدينة الطائف وهزم في المعركة التي وقعت بين الجيش الذي أرسله والده وبين الدولة السعودية الأولى، وقد تم نقله إلى جدة للعلاج، ومنها إلى ميناء القصير جنوب مصر على البحر الأحمر، ومات متأثراً بجراحه من معركة تربة، وفي رواية ثالثة قيل إن طوسون تعرض لعدوى الطاعون وحزن محمد علي باشا على وفاة ابنه الغالى، وكانت أصعب تجربة مر بها محمد علي باشا، والرأي الذي يشير إلى ادعاء محمد علي أن ابنه طوسون قد مات بالطاعون حفاظاً على ماء الوجه، أعتقد أنه رأي ضعيف لعدم قدرة «محمد علي» على التفكير في هذا الأمر لشدة حزنه على فقدان ابنه الشاب.

وقيل إن جثمان طوسون أتوا به إلى القلعة ووضعوه فى نعش مفتوح أمام جناح النساء وعند خروج الباشا صباحا تعرف عليه وصرخ صرخة مدوية أسمعت أرجاء المحروسة، ثم دخل فى عزلة استمرت طويلا، وأخذت من وقته الكثير، وهناك رواية أخرى بأنه لم يستطع أي شخص أن يخبر والده بهذا الخبر المفجع، لذلك أبلغوه بأن الأمير طوسون مرض بالطاعون ويريد رؤيته، ومن ثم انتقل محمد علي إلى المستشفى ليجد ابنه قد فارق الحياة.

وإن اختلفت الروايات عن كيفية وفاة الأمير أحمد طوسون إلا أن وفاته تسببت في حزن شديد لوالده «محمد علي»، وكذا الأسرة العلوية والمقربين، بل والشعب المصري الذي حزن حزناً شديداً على فقدان هذا الأمير الشاب وهو في ريعان شبابه، ومقتبل عمره، هذا وقد صلى عليه صلاة الجنازة وتم دفنه بمدافن الأسرة العلوية في الإمام الشافعي (حوش الباشا).

إنشاء سبيل على روح الأمير طوسون:

أنشأه محمد علي باشا الكبير عام ١٢٣٦هـ/١٨٢٠م، صدقة على روح ابنه الأمير أحمد طوسون باشا، ويقع هذا السبيل بمنطقة العقادين بشارع المعز وحارة الروم, ويتكون من حجرة للتسبيل وكُتاب للتعليم يعلوه طابقين، كان الغرض من بناء السبيل خيري وهو سقاية المارة بني السبيل على الطراز العثماني المميز، وكانت الزخارف الرخامية والرسوم الزيتية الموجودة على واجهة السبيل على طراز الباروك والركوكو، كما يزين الواجهة أبيات من الشعر مكتوب باللغة العربية والتركية العثمانية.

قال لـــــ محمد علي نسميه طوسون باشا..... فاختار اسمه «يوسف أفندي» :

التاريخ صفحات مكتوبة مملوءة بالمفاجآت، والأسرار والمواقف العديدة التي تغمرنا بالقصص والروايات، فالبحث في التاريخ يفاجئنا بالعديد من هذه المواقف أبرزها أن لكل مقولة أو تسمية نتداولها حديثا، بعمر المئات وربما الآلاف من السنين، ومن بين الصفحات المكتوبة التي سجلها التاريخ، قصة تسمية فاكهة «اليوستفندي» بهذا الاسم التي تعود إلى قصة حدثت في عهد محمد علي باشا.

كما ذكرنا سالفاً أن «محمد علي» باشا حزن على فقدان «طوسون» لدرجة أنه غاب عن جميع الأمور فترة متأثرا بهذا الحزن، وفي هذه الأثناء طلب من طلاب البعثات التي كان يرسلها إلى أوروبا بالعودة إلى مصر بكل ما هو جديد من العلوم والمعارف، وكان أحد هؤلاء الطلاب يدعى يوسف أفندي، وقد جلب معه نوع من الثمار لم يكن معروفاً في ذلك الوقت بمصر، وعندما عرضه على محمد علي باشا أعجب به وسأل: ماذا نسميه؟ فقال له يوسف أفندي (بعد أن علم بحادثة طوسون باشا المحزنة): فلنسميه «طوسون». فسُر «محمد علي» لمجاملة الشاب الرقيقة وابتسم له وقال: بل نسميه «يوسف أفندي» التي حرفت فيما بعد إلى «يوسفي» ثم «يوستفندي»، (يرجع أصل اليوسفي إلى بلاد الصين)، وخصص محمد علي بعد ذلك العديد من الأفدنة لزراعة أشجار «يوسف أفندي» وعُيِّن الطالب المجتهد يوسف أفندي مُشرفاً عليها، وأمر بزراعة هذه الثمار الجديدة في حديقة قصر شبرا، وفي إطار اهتمام محمد علي باشا بالتجارب الزراعية في مايو ١٨٣٠م، أمر بإرسال مجموعة من أشجار العنب والتوت والليمون والتين المستحضرة من الأستانة

(اسطنبول حاليا في تركيا)، وقام بتخصيص ١٠٠ فدان بجوار حديقة شبرا لزراعة هذه المزروعات الأوروبية.

الأمير إسماعيل بن محمد علي:

هو إسماعيل كامل باشا، الابن الثالث لمحمد علي باشا، وأمه «أمينة هانم» وهي بنت علي باشا المعروف بمصرلي، ولد عام ١٧٩٥م، قائد الحملة العسكرية لضم السودان عام ١٨٢٠م التي تكونت من القوات التركية والمغاربية والبدوية القبلية، وكان عمره حينذاك خمسةً وعشرين عاماً.

حملة محمد علي باشا على السودان:

عندما جاءت قوات محمد علي باشا بقيادة ابنه إسماعيل كامل باشا إلى السودان، وهُزمت مملكة الشايقية، ودانت له دنقلة وقبيلة الشايقية والرباطاب والميرفاب بالولاء والطاعة، بعث الملك نمر بابنه نائباً عنه، وأظهر الطاعة والولاء للأمير إسماعيل، ولكن الوشايات على ما يبدو بدأت تعمل عملها، فبلغ الباشا أن الملك نمر لم يكن طائعا بل متظاهراً بذلك، وأنه ما امتنع أو تجنب الحضور بنفسه إلا لأمر في نفسه، فألح إسماعيل باشا على حضور عاهل الجعليين شخصياً، فركب في جماعة من حرسه وأتباعه يلبس الطاقية ذات القرنين علامة الملك، ويحمل له أحد عبيده شمسية كبيرة تقيه حرارة الشمس، وتلقاه حرس من جند الباشا، ودخل معسكر إسماعيل باشا بهذه الهيئة، وحلف الملك نمر يمين الولاء والطاعة للسلطان العثماني، وخُلع عليه، غير أنه لم يعط سيفا كملك أرقو، ونصر الدين، وشيخ العبابدة، وكانت هذه علامة الحلف والاطمئنان والثقة، وفي هذا دلالة واضحة على أن إسماعيل لم يكن ليطمئن إلى عاهل دار جعل، بل إنه لم يكتفِ بذلك فحسب، فعندما غادر إسماعيل باشا مدينة شندي جنوبا في طريقه إلى سنار، أخذ معه الملك نمر والملك مساعد في ركابه، وأوكل بحراستهما الملك جاويش.

لعدم إزهاق الأرواح قال لهم: اذهبوا الآن أحراراً غير مقيدين..... إسماعيل كامل باشا:

جلس الأمير إسماعيل بن محمد علي باشا فى مقر إقامته بمعسكر جيشه بمدينة «كورتي» السودانية يوم ٥ نوفمبر عام ١٨٢٠م، وهو اليوم التالي للمعركة التي نشبت بين جيشه الذي خرج من مصر لفتح السودان، وجيش «الشايقية»، وكان هناك عشرون

أسيراً جلبوا أمام الأمير إسماعيل، فسألهم، كم كان عددهم فى هجومهم أمس؟ فلم يقصر أحدهم فى المبالغة جوابا على هذا السؤال، إذ قالوا: «كنا خمسة آلاف وكان الله معنا»، فقال لهم الأمير: عودوا إلى زعمائكم ومشايخكم وقولوا لهم بأني بقليل من الجند استطعت محاربة الكثير منكم، وإذا ضاعفتم عدد جنودكم إلى عشرة أمثالها فى بداية هجومكم فإنه لا يكون من حظكم غير ما لقيتموه أمس من الفشل والتقهقهر... أخبروهم بالنيابة عنى إذا كانوا يجهلون ما هي قوة جيشي، إنها أربعة أمثال من رأوهم فى الأمس، هذا فيما عدا الاثنى عشر مدفعاً التي لو أطلقت لجنودي العنان ليقتلوا ويستبيحوا منهم ما أرادوا، فليس في قدرتي أن أحول بينهم وما يقصدونه، فتحترق منازلكم، وتقطع رقاب نسائكم وأطفالكم، فعليكم إذن أن تنصحوا إلى زعمائكم بالحضور لتقديم فروض الطاعة لعدم إزهاق دمائكم، وأرسلوا هذا الكلام في خطاب لكي يسلموه لزعمائهم، ثم قال لهم الأمير: اذهبوا الآن أحراراً.

وبعد أن أمر بإطلاق سراحهم اصطحبهم بعض الحراس إلى خارج المعسكر، فاتجهوا إلى زعمائهم بدون أن ينالهم أذى، وما فعله إسماعيل يُعد من الإنسانية لعدم إزهاق الأرواح، إلا أنها لم تقنع أحداً من هؤلاء الزعماء، بضرورة التسليم كما لم تقنعهم نصائح العلماء الذين صحبوا الحملة ليكونوا لدى الأعداء كرسل مفوضين لحثهم على الإقرار بالطاعة لحكومة مصر، وقد عبر الشايقية النهر سباحة على مسافة اثنى عشر كيلومتراً من معسكر الجيش المصرى، أو ركوباً على الجياد، ثم جمعوا شتاتهم بالقرب من جبل داجر الذي يعلوه قصر حصين.

استخدام المدفعية والطلقات المتتابعة والهروب من ساحة المعركة:

حارب الشايقية بشجاعة وجرأة نادرتين أذهلت بطولة الخيالة الأتراك، حتى بلغت الحيرة بالقادة نظرا لتفوق رجال العدو على رجالهم في استخدام سيوفهم، إلا أن انتشار الذعر في صفوف مشاة عبيد الشايقية، ثم هروبهم من ساحة المعركة بعد استخدام المدفعية، وعادت الغلبة للقوات المصرية، وبعد المعركة أعاد إسماعيل باشا تنظيم وسائل الهجوم وأصر على أنه في حالة عدم وجود المدفعية يستعان بطلقات متتابعة ومجمعة بنيران الأسلحة، بينما يقوم مشاته بتصويب نيرانهم على جنبات وخيالة العدو، وفي كثير من الأحوال كانت تختلف الآراء بين إسماعيل وعابدي باشا الذي عرض على

الأمير، أن ينهي القتال والعودة إلى مصر، وعرض الأمر على محمد علي باشا، فأمر عابدي بك بالبقاء مع ابنه حتى يستغنى عن معاونته أو مشاورته.

(جانب من المعركة)

وفاة الطبيب المرافق للحملة الدكتور جنتيلي:

كانت خسائر الشايقية فى المعركة جسيمة للغاية، فكانت حوالي ثمانمائة من القتلى المشاة عدا الجرحى، وفي هذه المعركة جرح الدكتور جنتيلي (الطبيب المرافق للحملة المصرية) جرحا أليماً أفضى إلى موته في الثامن من شهر ديسمبر، أما خسائر القوات المصرية فبلغت حوالي خمسين عدا الجرحى.

فرار «مهيرة بنت عبود» من ميدان القتال:

«مهيرة بنت عبود» الشاعرة السودانية، بنت الشيخ عبود شيخ بادية السواراب أحد فروع الشايقية، هي التي أعطت الإشارة لجيشها لبدء المعركة في يوم ٤ نوفمبر، وكانت تمتطي بعيراً وتشدو بشعرها لبث الحماس لقواتها أثناء المعركة، كما كانت تصيح في قومها (هيا بنا للدفاع عن بلادنا واستقلالنا)، وبعد انتصارات القوات المصرية التركية، اضطرت للهرب وكان حولها حرسها الفرسان دون أن يصل إليها الجنود المصريون، بل وبغير أن يدركوا الحيلة التي تسللت بها، وفي إحدى المصادمات قتلت امرأة من الشايقية متأثرة بجراحها، ولما جلبت القتيلة إلى إسماعيل باشا، أمر جنوده بألا يطلقوا نيرانهم على النساء مهما كان الأمر، ومهما كانت الظروف، هذا وقد توفيت «مهيرة» في عام

١٨٤٠م في قرية أوسلي من الجهة الجنوبية الغربية (غرب النيل)، وشمال شرق كورتي بالسودان ودفنت بها.

هذا وقد احتلت القوات المصرية «كورتي» (هي إحدى مدن الولاية الشمالية في شمال السودان)، ثم اجتمع زعماء الشايقية وقرروا جميعا مقاومة الحملة، وتخيروا اثنين من بينهم للقيادة وهما «طبيك شاويش»، و«ملك سابلي»، ثم جمع الشايقية قواتهم في «جبل داجر»، وانتظروا قدوم الأمير إسماعيل الذي عمل على إراحة جنوده ما تبقى من شهر نوفمبر، وفي خلال ذلك وصلت المدفعية والتحقت بالجيش، وبدأ التقدم صوب الجنوب، وفي الثاني من ديسمبر ظهرت «الشايقية» وهم يستعدون للقتال في «جبل داجر»، بعد أن اتحدت كلمتهم على قتال الأمير إسماعيل.

المؤامرة الأليمة:

في عام ١٨٢٢م أعد الملك المدعو «نمر» بن محمد ولد نمر الجعلي السعدابي «ملك الجعليين بشندي، وهو آخر ملوك الجعليين إبان القرن التاسع عشر، مؤامرة للتخلص من الأمير إسماعيل كامل، والتي يرجع سببها إلى الإهانة التي وجهها الأمير لهذا الملك اللا آدمي وتوبيخه له وذلك لمهاجمة أهالي شندي لقوافل الرقيق المتجهة إلى مصر.

حادثة حرق إسماعيل:

بعد سقوط سنار عاصمة الفونج، عاد إسماعيل باشا إلى شندي، واستدعى الملك مساعد والملك نمر، وأمر الأمير نمر بدفع ضريبة باهظة، مع ألف من الرقيق خلال خمسة أيام، وعلى حسب بعض الروايات فإن الباشا طلب منهما أن يحضرا من النقود والماشية والجمال ما يقدر بنحو عشرين ألف جنيه، أو على وجه العموم مبلغا تعجز مواردهم المحدودة عن أدائه، وحين اعترض الملك نمر ملك الجعليين على مطالب الأمير، على أساس أنها مستحيلة، صفعه الباشا بغليونه على وجهه، وقد روي بأن «نمر» أوشك على رفع سيفه في وجه الأمير إسماعيل غير أن الملك مساعد قد أمسك بيده، وفي رواية أخرى أنه تحدث معه بلهجة البشاريين بأن يؤجل الانتقام لفرصة أخرى، وقد دبرت المؤامرة منذ تلك اللحظة حين تغير وجه نمر وأظهر القبول وتسليم المطلوب في الغد، ودعا الأمير إلى حفل عشاء في قصره، (ولا ننسى دعودة والده محمد علي باشا المماليك في حفل عشاء

بالقلعة وما فعله بهم)، ها هي تدور الدوائر ولكن نؤكد على تلك الخيانة من الملك نمر، والمؤامرة التي دبرها، وبشاعة الجرم المرتكب ليس لها مثيل.

حصار النار للأمير إسماعيل ورجاله:

وعندما انتهى الأمير ورجاله من الطعام وأخذوا يتأهبون للعودة إلى معسكرهم، فإذا النار قد اضطرمت في أكوام الحطب والقش والقصب الجاف المحيطة بالقصر، فجعلت القصر شعلة من الجحيم، وحاصرت النيران إسماعيل باشا وحاشيته فلم يستطيعوا الإفلات من هذا الحصار الجهنمي لهول النار المشتعلة من ناحية، ولإحاطة جنود الملك بهم يرمونهم بالسهام من كل ناحية، فسدت المخارج في وجوههم حتى ماتوا جميعاً، كما وقف الجعليون بسيوفهم يقتلون من يخترق النيران ويخرج إلى الفضاء، ويقال إن المماليك أظهروا إخلاصا لأميرهم وأحاطوه بأجسادهم وارتموا عليه، ومات بالاختناق لا بالاحتراق في عام ١٢٣٩هـ/ ١٨٢٢م، وعندما علم «محمد علي» نبأ وفاة ابنه دارت به الدنيا وغابت عنه الشمس لفقدانه ثاني أبنائه في غضون سنوات قليلة، فشعر كأنه كوكب تائه عن مداره، ولم يستطع الجند نجدتهم إذ كانوا في معسكرهم بعيدين عن مكان المأساة، ولما وقعت الكارثة انقض عليهم رجال الملك نمر ففتكوا بهم، ولم ينج منهم إلا من هرب منهم، ونستطيع القول بأنها مؤامرة مسمومة، ومحزنة ومفجعة، اتسمت بالبشاعة غير الإنسانية.

هكذا أفنى الأمير إسماعيل شبابه من أجل تأمين بلاده ومياه النيل، وزيادة الرقعة الزراعية، أي تأمين حياة المصريين كما أراد عزيز مصر، وكانت نهاية الأمير إسماعيل نهاية مفجعة بمؤامرة كانت دوافعها المطالبة بضرائب باهظة، مصحوبة بإهانة بالغة، وكان بطلها «نمر» من أبناء الجعليين، فكان الرد اغتيالاً دبر وأحكم تدبيره، بأعمال وحشية، فتُعد تلك الجريمة من الجرائم التي لا يغفلها التاريخ.

قيام الدفتردار بنقل جثمان إسماعيل كامل إلى القاهرة:

هذا وقد قام «محمد الدفتردار» (الذي كان مكلفاً بفتح كردفان)، صهر محمد علي، (زوج نازلي ابنة محمد علي ثاني أكبر بناته)، بنقل جثمان الأمير إسماعيل كامل إلى القاهرة، وقد قام محمد علي ببناء قبر لابنه بقرب الإمام الشافعي وبنى حوله

أبنية وأوصل الماء إليها، وهو ما يعرف الآن بحوش الباشا، وعندما نقل جثمان الأمير إسماعيل كامل إلى مصر، دفن في هذا القبر بجوار مدفن أخيه طوسون باشا واسمه مُسجَّل على شاهد القبر.

لقد حزن محمد علي باشا على مقتل ابنه الأمير إسماعيل حزناً شديداً، حزناً كسا النهار وشاحاً مختلط بالظلمة والسواد، كما خيَّم الحزن على كل أفراد الأسرة العلوية، والمقربين والعامة، وعليه قام محمد علي بإنشاء مجرى مياه يبدأ من مجرى عيون القلعة – جهة السيدة نفيسة – إلى حوش الباشا جهة الإمام الشافعي، وقد أجرى فيها ماء النيل ليصل إلى مكان الوضوء والأخلية وبالتالي أوقف استعمال الماء المالح، وذلك صدقة جارية على روح ابنه الفقيد بعد مقتله في السودان، ونذهب إلى علي مبارك في الخطط التوفيقية، حيث ذكر بأن الشيخ «القويسني» طلب من عزيز مصر «محمد علي» توصيل المياه إلى مطهرة الإمام الشافعي فاستجاب لطلبه.

حملة الدفتردار الانتقامية (ما بعد المحرقة):

أدت حادثة موت إسماعيل باشا حرقاً أو خنقاً، إلى وقوع حملات انتقامية ومجازر إبادة وحشية بحق السودانيين، حيث راح ضحيتها ٣٠,٠٠٠ من السودانيين، بعد أن ارتكب الدفتردار العديد من المجازر، وبعد أن ترك المتمة خرابا، اتَّجه شمالاً لملاقاة مساعد ونمر اللذين رحلا لمحاصرة بربر منذ أن قتل إسماعيل باشا، وحدث اللقاء معهما، واستمر قتال دارت دائرته على الجعليين بعد أن تركوا في ميدان المعركة نحو الألف قتيل، وبعد أن غرق الكثير في النهر، وبهذا انهارت تلك المقاومة الأولى وانفك الحصار عن بربر وتسنى لمحو بك أن يتقابل ويجتمع مع الدفتردار في الدامر.

وبعد الاجتماع والتشاور ورسم الخطط عاد محو بك إلى مركز حكومته، ثم اتجه الدفتردار جنوبا في بلاد الجعليين للانتقام منهم، وعندما كان قبالة جزيرة توتي عبر إليها وقتل ونشر الذعر والرعب ومن أدركه منهم قضى عليه حتى وصل ود مدني، وهكذا انتهت المرحلة الانتقامية، الأولى حيث رجع إلى كردفان تاركا الثوار ملتجئين بالبطانة بعد أن التحموا في معركة أخرى مع «محو» بك.

علم الجعليون بقدوم العسكر فلجأوا إلى البطانة بالقرب من أبي دليق، ووصل هو إلى بلاد الجعليين وجهز جيشا يلحق بالثوار، وحرَّض القبائل الأخرى لتمد يد المساعدة

للحكومة، والتقى بهم في مكان يدعى النصوب، انهزم بعدها الملك نمر بعد أن قُتل عدد كبير من أهله وعشيرته، فتلاشت قوة نمر بقتل من قُتل وأسر البقية.

هروب نمر إلى الحبشة ونهايته:

وبعد معارك النصوب وأبي دليق، فر الملك نمر بعدد من أصحابه إلى الحبشة، وفي طريقه إلى هناك أدركه الملك جاويش، وبدد جيشه، فاستعد الملك نمر للقتل، ولكن الملك جاويش أمر جنوده بالكف عن إطلاق النار، وتركه يذهب للحبشة، وأقام عاصمته المتمة في الجبال على بحر السلام، وتوفي المك نمر هناك.

ملحمة ٢٥ يناير ١٩٥٢م التاريخية

الزعيم الوطني مصطفى النحاس باشا:

طالما كانت بريطانيا تُسوِّف وتماطل في تنفيذ معاهدة ١٩٣٦م، رغم إعلان استقلال مصر وانضمامها إلى عصبة الأمم، إلا أنها أبقت على قواتها في منطقة القناة، وتندلع الحرب الكونية الثانية وتنتهي، وتمر أحداث عالمية كثيرة، وتفشل عصبة الأمم، ثم تأسيس الأمم المتحدة وكانت مصر من أوائل البلدان التي نالت عضويتها وهذا اعتراف عالمي باستقلالها، إلا أن القوات البريطانية لازالت في منطقة القناة، كأنها لا تريد أن ترحل عن أم الدنيا، (كما فعل الإسرائيليون عند انسحابهم من سيناء، حتى أنهم كانوا يلطمون وجههم بتراب سيناء) والقوات الإنجليزية في القناة تظل متواجدة رغم المعاهدة التي عُرفت بمعاهدة الصداقة، – يريدون حقًّا ليس حقهم – فهذا دفع الزعيم مصطفى النحاس إلى إلغاء معاهدة ١٩٣٦م، في الثامن من شهر أكتوبر لعام ١٩٥١م، وبإلغاء المعاهدة أصبح وجود القوات البريطانية في منطقة القناة احتلال غير مشروع.

بريطانيا هكذا تتحدث بـ الأنا، تتحدث بلغة أنا الكبير، لكن المصريين أثبتوا لهم أن الكبير هو الذي لا يفرط في تراب وطنه، والتحم رجالات الشرطة مع الفدائيين الذين سطروا ملحمة تاريخية، مما دفع الجنرال «إكسهام» أن يأمر جنود فصيلة بريطانية بأداء التحية العسكرية لطابور رجال الشرطة المصريين عند خروجهم من دار المحافظة ومرورهم أمامهم تكريما لهم وتقديرا لشجاعتهم وتفانيهم لوطنهم، فقد كانت ملحمة تاريخية لم تُبعث لبريطانيا فحسب بل للعالم بأسره بمدى تضحيات المصريين من رجال الشرطة وفدائيين بأرواحهم دفاعاً عن تراب وطنهم الغالي، فهم لم يفكروا في أنفسهم لحظة – في حياتهم – ولا ماذا يكون مستقبلهم فكانت تضحياتهم من أجل وطنهم» «فالوطن غالي يسري في دم الشرفاء فهو الشجرة الطيبة التي تُسقى بالولاء والتضحية».

إعلان الحكومة المصرية برئاسة مصطفى النحاس إلغاء معاهدة الصداقة:

وبإلغاء المعاهدة أصبح الوجود الإنجليزي في مصر غير مرغوب فيه وكانت مطالب الفدائيين برحيل قوات الاحتلال، كما لا يتفق مع المعاهدات والمواثيق الدولية، بل أصبح

وجودهم أشبه باللص الذي يسرق من الآخرين..... كالمجرم الذي يؤذي الناس دون تفكير، دائما ما كانت بريطانيا تستبيح دول دون وجه حق كأنها ملكاً لها، لا عقود – لا معاهدات – لا اتفاقيات دولية – لا مواثيق، هكذا كان العقل البريطاني حينذاك، ولا ننسى ما فعلته في فلسطين..... وليس من الغريب أن تتحرك الدبابات الإنجليزية وقوات الفرسان الملكية في الإسماعيلية، ونرى قائد القوات البريطانية يُصدر قراره بشن الهجوم على مقر الشرطة المصرية.

إحدى صور المقاومة الشعبية:

وهناك بعض الأحداث التي تنم عن وعي الأهالي وحسهم الوطني وقيم المواطنة، فقد قام أهالي إحدى القرى يمنعون ثلاثة آلاف عامل من الوصول إلى معسكرات التل الكبير، لذا كان هناك أكثر من ستين ألف عامل رفضوا العمل في المعسكرات الإنجليزية، فقد رفضوا لقمة العيش الراقدة في الذل وخيانة الوطن، الغارقة بدماء الشهداء الأبرار، وعليه فلم يوجد أحد يقوم بتوريد المواد الغذائية للاحتلال، فكانت أول صورة من صور المقاومة الشعبية.

التوتر المصري الإنـجليزي:

صعد التوتر بين مصر وبريطانيا فبلغ حداً مرتفعاً إلى قمة الأهرامات، عندما شن الفدائيون هجومهم ضد معسكراتهم وجنودهم وضباطهم في منطقة القناة فقد كانت الخسائر البريطانية نتيجة العمليات الفدائية فادحة، خاصة في الفترة الأولى، وكذا أدى انسحاب العمال المصريين من العمل في معسكرات الإنجليز إلى وضع القوات البريطانية في منطقة القناة في حرج شديد بل تملك الخوف والرعب من قوات الاحتلال.

ماذا فعلت قوات الإحتلال؟

كأنهم تلقوا ضربة على رؤسهم أفقدتهم وعيهم، فقاموا ببعض الأعمال غير المحسوبة، فقد قام عساكر الإنجليز بدخول بيوت الناس يفتشون ويبحثون عن الفدائيين وكان العنف والقسوة أداتهم، مما أدى إلى ازدياد حدة المقاومة، كما قاموا بحصار مدينة الإسماعيلية بأكملها، مداخلها ومخارجها، ويظهر البطل «مصطفى رفعت» أحد أبطال رجال الشرطة الذي سطر قصة كفاح أبناء الشرطة في الإسماعيلية وكفاح مصر كلها.

المصريون يتركون قوت يومهم فداءً للوطن:

حينما أعلنت الحكومة عن فتح مكاتب لتسجيل أسماء عمال المعسكرات الراغبين في ترك عملهم مساهمة في الكفاح الوطني سجل (٩١٥٧٢) عاملاً أسماءهم في الفترة من ١٦ أكتوبر ١٩٥١ وحتى ٣٠ من نوفمبر ١٩٥١م، كما توقف المتعهدون عن توريد الخضراوات واللحوم والمستلزمات الأخرى الضرورية لإعاشة ثمانين ألف جندي وضابط بريطاني.

بعد إعلان إلغاء معاهدة الصداقة غضبت بريطانيا غضبا شديدا واعتبرت إلغاء المعاهدة بداية لإشعال الحرب على المصريين ومعه إحكام قبضة المستعمر الإنجليزى على المدن المصرية ومنها مدن القناة والتي كانت مركزا رئيسيا لمعسكرات الإنجليز وبدأت أولى حلقات النضال ضد المستعمر وبدأت المظاهرات العارمة للمطالبة بجلاء الإنجليز.

في السادس من أكتوبر سنة ١٩٥١م بدأت أولى شرارة التمرد ضد وجود المستعمر بحرق مستودع تموين وأغذية بحرية للإنجليز الذي كان مقره بميدان عرابي وسط مدينة الإسماعيلية، وتم إحراقه بعد مظاهرات من العمال والطلبة والقضاء عليه تماما لتشتد قبضة الإنجليز على أبناء المدينة وتزيد الخناق عليهم فقرروا تنظيم جهودهم لمحاربة الإنجليز فكانت ملحمة ٢٥ يناير ١٩٥٢م التي تضرب أروع التضحيات في سبيل الوطن.

أجراس المقاومة الشعبية تدق عنق الاحتلال..... وطنية المصريين في سماء مصر

يقول اللواء «عبد الكريم درويش» ضابط الاتصال المصري في معسكر التل الكبير، كان يوجد ١٢٥ ألف عامل مصري في معسكر التل الكبير قد خرجوا من المعسكر ورفضهم العمل بعد المجزرة وكذلك قطعت توريد المواد الغذائية للاحتلال الإنجليزي وتُعد أول صورة من صور المقاومة الشعبية التي دقت عنق الإنجليز.

وقد خرج هؤلاء العمال من المعسكر رغم المرتبات الخيالية التي كانوا يتحصلوا عليها، وليس فقط عمال التل الكبير بل جميع العمال في كل مصر كان قرارهم واضحاً وهو استقالتهم التي تنم عن وطنية المصريين وولائهم لتراب وطنهم مما ألهب حماس الفدائيين وانضمام الكثير لهم الذين شنوا هجمات عديدة أضعفت قوات الاحتلال الذي تكبد خسائر فادحة، ليس خسائر مادية فحسب بل خسائر معنوية أيضاً، ولقنوا العدو درساً في حب الوطن – الولاء للوطن – التضحية من أجل الوطن.

وزير الداخلية فؤاد باشا سراج الدين:

في صباح يوم الجمعة ٢٥ يناير ١٩٥٢م، استدعى القائد البريطاني بمنطقة القناة– «إكسهام»– ضابط الاتصال المصري، وسلمه إنذاراً بأن تسلم قوات البوليس «الشرطة» المصرية بالإسماعيلية أسلحتها للقوات البريطانية، وتترك مبنى المحافظة والثكنات، وترحل عن منطقة القناة كلها. والانسحاب إلى القاهرة بدعوى أنها مركز اختفاء الفدائيين المصريين المكافحين ضد قواته في منطقة القنال ورفضت المحافظة الإنذار البريطاني وأبلغته إلى وزير الداخلية «فؤاد باشا سراج الدين» الذي رفض الإنذار البريطاني وأقر موقف المحافظة، وطلب منها ومن أبطال الملحمة الصمود والمقاومة وعدم الاستسلام، وقد طلب من بلوكات النظام (الشرطة المصرية) في الإسماعيلية بالتلاحم مع الفدائيين ضد الاحتلال الإنجليزي بعد استيلائهم على مبنى محافظة الإسماعيلية.

ودار هذا الحوار عبر اتصال تليفوني بين وزير الداخلية والبطل «مصطفى رفعت»:

سأل الوزير عن الموقف في الإسماعيلية.....

قال البطل: إحنا محاصرين يا فندم ومقسمين قواتنا بين المستوصف والمحافظة، وعددنا ثمانمائة فرد بالتسليح المعتاد.....

ثم سأل الوزير: عن عدد القوات الإنجليزية.....

فقال البطل: سبعة آلاف ضباط وجنود ومعهم دبابات ومدافع وأسلحة ثقيلة.....

فقال الوزير: بلغ رجالك الصمود وحماية المكان إحنا مش ساكتين.....

رد البطل «مصطفى رفعت»: حاضر يا فندم إحنا مش حنسيب موقعنا إلا وإحنا جثث هامدة يا فندم.

وقال فؤاد باشا: لا تنسى أنت لست مسئولا عن أرواح زملائك فقط أنت مسؤول عن أرواح كل أهالي الإسماعيلية.....

رد البطل قائلاً: تمام يا فندم ربنا معانا.....

لذا وضع اليوزباشي «مصطفى رفعت» روحه على كفة وتراب البلاد في الكفة الثانية، فاختار تراب الوطن.....

على مدار تاريخ مصرنا العزيزة كان هناك لحظات فارقة..... يُصنع فيها البطل الذي

لا يتوانى أبداً في حماية وطنه مهما كانت التكلفة، ويضع مسئولية وطنه على أكتافه حتى إذا كانت حياته الثمن.

الإنـجليز يدافعون عن الباطل ويستخدمون القوة:

وقوات الاحتلال التي لا تنظر أبداً للحق بل وتدافع عن ما هو باطل، فهم طاغوت، ها هي تقوم بمنتهى الوحشية بضرب كابلات الكهرباء وأنابيب المياه، تلك الوحشية التي أصبحت عقيدة لدى الإنجليز في العصور الوسطى واستمرت في القرن الثامن عشر حتى القرن العشرين في بلدان عدة في القارة الآسيوية والأفريقية والأوروبية.

الإنـجليز يخطفون العمال:

لقد قاموا بخطف عشرة مدنيين، وتركوهم في الطريق الصحراوي، ليت هذا الموقف كان لكي يعملون في المعسكر الإنجليزي ولكن وحشيتهم ورد فعلهم للمقاومة الشعبية المتمثلة في الفدائيين الشرفاء ورجالات الشرطة الوطنيين الذين لا يهابون الموت في سبيل مصرنا العزيز، تلك المقاومة الوطنية وتلاحم الشرطة مع الفدائيين جعلت الإنجليز يتركون العمال في الصحراء للموت عطشاً، وقد قامت القوات البريطانية بإغلاق الطريق بين الإسماعيلية والسويس مع وجود قوات كبيرة حول المنطقة، ورغم هذا فكانت مقاومة الأبطال خير شاهد على حب الوطن والتضحية من أجله ها هم أبناء بورسعيد يهزمون مدافع الإنجليز.

القائد البريطاني في الإسماعيلية:

لقد كانت المقاومة الوطنية لرجال الشرطة المصرية رغم قلة عددهم وقلة تسليحهم بمثابة مفاجأة لقوات الاحتلال البريطاني، ومن هذا المنطلق دار هذا الحديث بين إكسهام وقائد القوات الريطانية في المنطقة.

سأل القائد البريطاني: ما مدى تصدي رجال الشرطة المصرية للإنجليز.....

رد إكسهام بأنها مقاومة عنيفة.....

القائد: ماذا تقصد؟

ويسأله: هل قسم شرطة بالإسماعيلية سيهزم جيش بريطانيا؟

فقال إكسهام: سيدي، إنهم يقاتلون بكل شراسة وكأنهم يتمنون الموت، وقد فقدنا ثلاثة عشر ضابط وجندي من بينهم قائد أركان حرب.....

فرد عليه قائلاً: لا تهدر الوقت في الحديث عن الخسائر، اقتحم المكان فوراً أيًّا كانت العواقب.

بداية الملحمة التاريخية:

وبدأت قصة معركة الشرطة في صباح يوم الجمعة الموافق ٢٥ يناير عام ١٩٥٢ حيث قام القائد البريطاني بمنطقة القناة «البريجادير أكسهام» باستدعاء ضابط الاتصال المصري، وسلمه إنذارا لتسلم قوات الشرطة المصرية بالإسماعيلية أسلحتها للقوات البريطانية، وترحل عن منطقة القناة وتنسحب إلى القاهرة فما كان من المحافظة إلا أن رفضت الإنذار البريطاني وأبلغته إلى فؤاد سراج الدين، وزير الداخلية في هذا الوقت، والذي طلب منها الصمود والمقاومة وعدم الاستسلام.

وكانت هذه الحادثة أهم الأسباب في اندلاع العصيان لدى قوات الشرطة أو التي كان يطلق عليها بلوكات النظام وقتها وهو ما جعل إكسهام وقواته يقومان بمحاصرة المدينة وتقسيمها إلى حي العرب وحي الإفرنج ووضع سلك شائك بين المنطقتين بحيث لا يصل أحد من أبناء المحافظة إلى الحي الراقي مكان إقامة الأجانب.

مصطفى رفعت، الموت من أجل تراب مصر:

قال «مصطفى رفعت» ضابط قسم البساتين بالإسماعيلية لـــ إكسهام كلام أجمل وأروع من أبيات الشعر – كلام يرفع شأن كل مصري، كانت بعض الكلمات تنم عن مدى التضحيات التي يقدمها رجالات الشرطة المصرية – كلمات تنقش على الجبين الفداء والولاء لتراب مصر، وتملكت الدهشة القائد البريطاني المتعجرف حينما جاءه الرد من ضابط شاب صغير الرتبة لكنه متأجج الحماسة والوطنية، وهو النقيب مصطفى رفعت، فقد صرخ في وجهه في شجاعة وثبات: لن تتسلمونا إلا جثثا هامدة، ويروي البطل أنه أثناء الأحداث التي شهدتها المدينة، توجهنا لحماية المحافظة من الإنجليز، وعندما علم جنودنا غمرتهم الفرحة والسعادة للدفاع عن أرضنا، ورددوا أرواحنا فداءً للوطن.

وعند وصولنا مبنى المحافظة التقى بي «إكسهام» على باب المحافظة، وتم هذا الحوار بيننا:

سألني: هل أنت الضابط المسئول عن القسم؟

وكان ردي له: نعم أنا الضابط المسئول عن القسم.....

فقال لي: اصطحب جنودك وقطعة القماش من أعلى المبنى وتوجه إلى محطة القطار وغادر إلى القاهرة فوراً.

وكان ردي عليه عنيف وقلت له قطعة القماش اللي أنت بتتكلم عنها ده حتفضل موجودة فوق المبنى لأنها علمنا، أما بالنسبة للقطار فيقدر يستناك أنت وجنودك لأننا لو فضلنا نحارب بعض خمسين سنة أنتم اللي ترحلوا.

رد قائلاً: إنت بالطريقة دي بتتحدى جيش بريطانيا العظمى.

فقلت له: أنا اللي عندي قلته.

ويسرد البطل كلامه ويقول، أنا ميت .. ميت، لكن قبل ما أموت لازم أعمل حاجة.

(الدبابات والعربات المصفحة وصوت المدافع الإنجليزية رج بيوت الإسماعيلية كأنه زلزال):

بداية المجزرة الوحشية كانت في الساعة السابعة صباحاً وانطلقت المدافع ومدافع الدبابات الضخمة تدك بقنابلها مبنى المحافظة وثكنة بلوكات النظام بلا شفقه أو رحمة وبعد أن تقوضت الجدران وسالت الدماء أنهارا، أمر الجنرال إكسهام بوقف الضرب لمدة قصيرة لكي يعلن على رجال الشرطة المحاصرين في الداخل إنذاره الأخير وهو التسليم والخروج رافعي الأيدي وبدون أسلحتهم وإلا فإن قواته ستستأنف الضرب بأقصى شدة.

(اليوزباشي مصطفى رفعت)

(بطل ملحمة الإسماعيلية)

(رفض الاستسلام)

واستمرت المذبحة بإطلاق الإنجليز مدافع دباباتهم وإطلاق القنابل التي انهمرت بشكل مركز وبشع بدون توقف على المباني التي حولتها إلى أنقاض، بينما تبعثرت في أركانها الأشلاء وارتوت أرضها بالدماء الطاهرة، ولم تكن قوات البوليس المصرية مسلحة بشيء سوى البنادق العادية القديمة، وقبل غروب شمس الملحمة حاصر الإنجليز مبنى قسم البوليس «الشرطة»، ومبنى المحافظة في الإسماعيلية، سبعة آلاف جندي بريطاني مزودين بالأسلحة، تدعمهم دباباتهم الثقيلة وعرباتهم المصفحة ومدافع الميدان، بينما كان عدد الجنود المصريين المحاصرين لا يزيد على ثمانمائة في الثكنات وثمانين في المحافظة، لا يحملون غير البنادق القديمة.

معركة الإسماعيلية أيقونة ٢٥ يناير:

«كانت حوادث القتال تتفاقم وكان رجال البوليس يتحملون العبء الأكبر من أعباء الجهاد ضد جيش كبير كامل التسليح»

أنور السادات

استخدم البريطانيون كل ما معهم من الأسلحة في قصف مبنى المحافظة، ومع ذلك قاوم الجنود المصريون واستمروا يقاومون ببسالة وشجاعة فائقة ودارت معركة غير متساوية القوة بين القوات البريطانية وقوات الشرطة المحاصرة في القسم، ورغم ما حدث من مجزرة بشعة ظل أبطال الشرطة صامدين في مواقعهم يقاومون ببنادقهم العتيقة، ولم تتوقف هذه المجزرة حتى نفدت آخر طلقة معهم بعد ساعتين طويلتين من القتال.

«إننا نراقب دائماً أيام القتال كيف كان يكافح رجال البوليس العزل من السلاح رجال الإمبراطورية البريطانية المسلحين بأقوى الأسلحة وكيف صمدوا ودافعوا عن شرفهم وشرف الوطن»

جمال عبد الناصر

وقد استشهد ستة وخمسون شهيدًا و ثمانون جريحاً، وهم جميع أفراد جنود وضباط قوة الشرطة التي كانت تتمركز في مبنى القسم، ووصل الشهداء إلى ٦٤ شهيداً من ضباط وجنود الشرطة و٢٢٠ جريحاً وفقًا لما جاء في جريدة الأهرام في اليوم التالي من الملحمة، هذا بخلاف عدد آخر من المدنيين وأسر من بقي منهم، بينما سقط من الضباط البريطانيين ١٣ قتيلا و١٢ جريحا، وأسر البريطانيون من بقى منهم على قيد الحياة من الضباط والجنود وعلى رأسهم قائدهم اللواء أحمد رائف ولم يفرج عنهم إلا في فبراير ١٩٥٢م، هذا وقد أمر البريطانيون بتدمير بعض القرى حول الإسماعيلية كان يعتقد أنها مركز اختفاء الفدائيين المصريين المكافحين ضد قواتهم فقتل عدد آخر من المدنيين وجرحوا أثناء عمليات تفتيش القوات البريطانية للقرى.

التحية العسكرية من الإنـجليز لرجالات الشرطة المصرية:

لم يستطع الجنرال إكسهام أن يخفي إعجابه بشجاعة المصريين فقال للمقدم «شريف العبد» ضابط الاتصال: لقد قاتل رجال الشرطة المصريون بشرف حتى نفاذ ذخيرتهم، ولذا فإن من واجبنا احترامهم جميعاً ضباطاً وجنوداً، وقام جنود فصيلة بريطانية بأمر من الجنرال إكسهام بأداء التحية العسكرية لطابور رجال الشرطة المصريين عند خروجهم من دار المحافظة ومرورهم أمامهم تكريماً لهم وتقديراً لشجاعتهم وحتى تظل بطولات الشهداء من رجال الشرطة المصرية في معركتهم ضد الاحتلال الإنجليزى ماثلة في الأذهان ليحفظها ويتغنى بها الكبار والشباب وتعيها ذاكرة الطفل المصري وتحتفى بها.

مظاهرات رجال الشرطة وطلاب جامعة القاهرة:

في صباح السبت ٢٦ من يناير ١٩٥٢م انتشرت أخبار الحادث في مصر كلها، واستقبل المصريون تلك الأنباء بالغضب والسخط، وخرجت المظاهرات العارمة في القاهرة، واشترك جنود الشرطة مع طلاب الجامعة في مظاهراتهم، وانطلقت المظاهرات تشق شوارع القاهرة التي امتلأت بالجماهير الغاضبة.

المجد للشهداء أسماء شهداء مجزرة الإسماعيلية:

هؤلاء الأبطال الأبرار سُجلت أسماؤهم من نور، لا ننساهم... فبلادنا الحبيبة لا تنساهم أبدا فلا تنسى أبناءها المخلصين ومنهم أبطال ملحمة الإسماعيلية يناير ١٩٥٢م، وتسطر أسماء هؤلاء الشهداء، شهداء مصر أولاً، والداخلية ثانياً، في متحف الشرطة بمحافظة الإسماعيلية، وتبقى محل تقدير وإعزاز، ونبراساً لكل الأجيال، حيث جاء بين هذه الأسماء: «السيد محمد الفحل، وعلي السيد علي، وعبد الحكيم أحمد جاد، وثابت مصطفى، وأحمد مراد أحمد، وعبد ربه عبد الجليل عامر، ومحمد أحمد إبراهيم المنشاوي، وفتحي بدوي أحمد الحليوي، وعبد الله عبد المنعم فرج، ومصطفى عبد الوهاب محمود ومحمد الطوخي رمضان، وسيد علي حسين، وحسين عبد السلام قرني، والسيد مجاهد علي الزيات، وعبد النبي سالم جمعة، ومحمد أحمد حمدي، وعبد الحميد عبد الرازق، وأبو المجد محمد مصطفى، وعبد السلام سليم صالح، ورضوان أحمد محمد حيدر، وكامل مازن حسين، وفؤاد عبد الرازق علي، وأحمد أبو زيد منياوي، وعبد الحميد معوض حشيش، وعبد الفتاح شاهين، وعبد الله مرزوق عبد الله، ومحمد إبراهيم

أحمد، ومحمد محمود بدوي، وفرج السيد إسماعيل، وعبد الحميد مسلمي أحمد، وعبد السلام أحمد إبراهيم، ومحمد الجندي إبراهيم، وفتحي أمين جمعة، ورياض عبود أسعد، وعبد الغني محمد خليفة، واليماني إسماعيل إبراهيم، وعبد الفتاح عبد الحميد، وبسيوني علي الشرقاوي، ومحمد محمد البياعة، وأمين عبد المنعم السيد، ومحمد حسن محمود حسن، ومحمد المليجي أحمد مصيلحي، وبهي الدين علي حجازي، وعبد الفتاح عبد النبي العطار، وعبد المنعم بيومي علي البنا، ومحمد عبد المعطي حسن عيد، ومحمود محمد عبد الرحمن فودة، وحسن عبد السلام عبد المنعم، ومحمود حسن عفيفي عمارة، ومحمد عبد الغني السيد الفيشاوي، ومحمد أحمد علي زايد، وعلي محمد منصور الطبال، وأحمد محمد فريد، وأبو الفتوح أحمد أبو الفتوح، وعبد الحميد إبراهيم علي منصور، وسعد علي السايس، هذا وقد تم دفن هؤلاء الأبطال الأبرار في مكان واحد بمحافظة الإسماعيلية.

المجد للأبطال:

«أبنائي وإخواني ضباط وجنود البوليس... إننا نحتفل اليوم بذكرى شهدائنا الأبطال... الذين سجلوا لمصر مجداً وعظمة وفخراً»

محمد نجيب

لم تتوقف تضحيات رجال الشرطة منذ يوم المجد بل استمرت حتى وقتنا الراهن، هذا ولايزالون يقدمون العديد من صور التضحيات ويسقط منهم شهداء خلال دفاعهم وذودهم عن تراب الوطن لتطهيره من دنس العناصر الإرهابية والجماعات الإرهابية، والمجد للأبطال.

الملحمة التاريخية في الإسماعيلية ٢٥ يناير ١٩٥٢م

٢٥ يناير عيد الشرطة

لقد تجسدت في معركة الإسماعيلية المجيدة في ٢٥ يناير ١٩٥٢م، بطولات رجال الشرطة وقيم التضحية والفداء والاستبسال دفاعاً عن تراب الوطن، وكانت وبحق ملحمة كفاح ونضال ستظل على مر العصور شاهدة على نبل البطولة وشرف الصمود.

عبد الفتاح السيسي

تخليداً لذكرى ملحمة الإسماعيلية عام ١٩٥٢م التي راح ضحيتها أكثر من خمسين شهيداً وثمانين جريحاً من رجال الشرطة المصرية على يد الاحتلال الإنجليزي في ٢٥ يناير عام ١٩٥٢م بعد أن رفض رجال الشرطة تسليم سلاحهم وإخلاء مبنى محافظة الإسماعيلية للاحتلال الإنجليزي، أصبح هذا اليوم إجازة رسمية في البلاد واتخاذه عيداً للشرطة، ليس لأبطال الشرطة فحسب بل لكل المصريين، فتحول يوم ٢٥ يناير إلى عيد للشرطة يُحتفل به كل عام، كما أنه أصبح عيداً قومياً لمحافظة الإسماعيلية، وفي عام ٢٠٠٩م أصبح يوم ٢٥ يناير من كل عام يوم عطلة رسمية في مصر، تحية لهؤلاء الأبطال الذين أفنوا أرواحهم فداءً للوطن.

لـــك يـــا مـــصـــر الـــسـلامـــة وســـــلامـــــاً يـــا بـــــلادي
إن رمـــى الـــدهـــر ســهـامـه أتـــقـــيـــهـــا بـــــفـــــؤادي
واسلمـــــــي فـــــي كل حـين

مصطفى صادق الرافعي

كانت هناك

المجاعة العظمى في الهند

شبه القارة الهندية:

بدأ الاستعمار البريطاني في شبه الجزيرة الهندية في عام ١٨٥٨م، بالرغم من أن سريلانكا تقع في شبه الجزيرة الهندية، إلا أنها حُكمت مباشرة من لندن بخلاف الهند البريطانية..... الحكم البريطاني في الهند انتهى في ١٥ أغسطس ١٩٤٧م.

شبه القارة الهندية قبل الاستعمار البريطاني كانت تشغل مساحة كبيرة في القارة الآسيوية وهي الهند وباكستان الشرقية التي أصبحت بنجلاديش، بوتان، نيبال، باكستان الغربية، كما تضم جزيرة سريلانكا وجزر المالديف الواقعة في المحيط الهندي، ولم تنل استقلالها إلا وهي مفتتة، قد قام الاستعمار البريطاني بتقسيمها إلى عدة دول، بل وترك نزاع حدودي على بعض المناطق الهندية، منها نيبال وبوتان وكشمير.

أكل الناس لحوم البشر من أجل البقاء أحياء..... إلا أن الموت كان لهم كموعد لقاء:

بدأت أولى علامات الجفاف الرهيب في الظهور مع تأخر سقوط الأمطار عام ١٧٦٩م، وكانت الولايات الحديثة لها النصيب الأكبر في التعرض للمجاعة في غرب البنغال وبيهار، وولايات أوريسا وجارخاند وبنغلاديش، ومرشد أباد، وقد جرى إخلاء الآلاف من المنطقة على أمل العثور على الغذاء في أي مكان آخر، فقط للموت من الجوع في وقت لاحق وليس للحياة، أولئك الذين بقوا على الرغم من ذلك لقوا حتفهم، ففارقت الحياة أعداد ضخمة، ومن بقى حيًّا لجأ إلى أكل العشب واللحم البشري من أجل البقاء على قيد الحياة إلا أن الموت لاقاه، ورغم ذلك لم تكن المجاعة وبريطانيا سببا للموت فقط، بل كان هناك من الأسباب ما يدعو للحزن والألم مثل العنف اللا آدمي، وقد تم التخلي عن آلاف الأفدنة من الأراضي الزراعية، وقبل ذلك، كلما كانت هناك احتمالات لحدوث مجاعة، كان الحكام الهنود يتنازلون عن الضرائب ويقومون باتخاذ التدابير التعويضية، مثل الري الذي كان يستهدف منه توفير أكبر قدر ممكن من الإغاثة للمزارعين المنكوبين.

على الرغم من أن المجاعة قد حدثت في وقت مبكر من ١٧٧٠م، تابع الحكام الاستعماريون حينذاك تجاهل أي تحذيرات جاءت في طريقهم فيما يتعلق بالمجاعة، وبدأت الوفيات في عام١٧٧١م، أصبحت الشوارع مزدحمة بالجثامين من أطفال ونساء وشباب وشيوخ مشهد عصيب، حتى أن أحد الجنود الإنجليز لم يقو على تحمل هذا المشهد الصارخ الباكي من هول الجريمة الشنعاء التي اقترفتها بريطانيا في القرن التاسع عشر وأدارتها بتلذذ، فكان الموتى بالآلاف الذين ماتوا جوعاً، فهذا المشهد لم يتحمله هذا الجندي وصرخ صرخة تكاد أن تصل مدينة لندن ذاتها، فقد أقدم هذا الجندي على الانتحار إلا أنه لم يكترث هؤلاء المجرمين لما حدث.

الموت الأسود – الموت العظيم:

كانت أولى هذه المجاعات في عام ١٧٧٠م، وكانت مجاعة وحشية، حيث تجلت أولى المؤشرات التي كانت تشير إلى مجيء مثل هذه المجاعة الضخمة في عام ١٧٦٩م، وأصبح السكان كومة من العظام الحي، وكشأن أي مجاعة، حاول السكان أكل ما يقع تحت أيديهم من حيوانات الشوارع التي اختفت في نهاية الأمر، وانتشر خطف الأطفال لأكلهم، وأكل الموتى، لقد رسمت تلك المجاعة تابلوه فني حزين كلما رأيته كلما حزنت أكثر.

مجاعة تخطت الطاعون الأسود الذي اجتاح أوروبا في القرن الرابع عشر الميلادي

وامتدت تلك المجاعة حتى عام ١٧٧٣م، وأسفرت عن مقتل ما يقرب من ١٠ ملايين شخص، يقارب عدد سكان السويد حاليا، كما أنها تجاوزت نظيرتها فيما جرى خلال الهولوكوست (الكارثة) الإبادة الجماعية التي وقعت خلال الحرب العالمية الثانية، وقُتِل فيها ما يقرب من ستة ملايين يهودي أوروبي على يد النظام النازي أدولف هتلر والمتعاونين معه، وخلفت هذه المجاعة دمارا طال ثلث سكان البنغال، إن هذه المجاعة كانت أشد فتكا بكثير من الطاعون الأسود الذي اجتاح القارة الأوروبية فيما بين عامي ١٣٤٧م – ١٣٥٢م خلال القرن الرابع عشر، وتسبب في موت ما يقرب من ثلث سكان القارة العجوز، إلى أن يأتي دور بريطانيا وتجويع سكان الهند.

وعلى أثر هذه المجاعة تشكلت عصابات ليست بعصابات، كانت مجرد أعمال وحشية عشوائية ارتجالية غير مخطط لها، قام بها أفراد وأفراد من الجياع، يقومون بخطف

الأطفال من الشوارع، فقد كان الطفل يزين لهم مائدة الطعام، وذات يوم كان هناك أخوان اثنان جالسان خارج منزلهما يبحثان عن طعام، ويأكلان ما يجدانه من عشب، أو فضلات طعام إن وجدت، وفجأة ظهر لهما مجموعة من الرجال، فعندما رأوهم أخذا يعدوان مسرعَيْن، إلا أن هؤلاء تمكنوا من الإمساك بواحد من الأخوين، وأعدوا المائدة التي كانت على شرف الطفل المقتول، والتهموه دون أي إحساس أو شعور آدمي، وكان أخوه ينظر من وراء صخرة على هذا المشهد البشع – المؤلم وأخذ يبكي، وناجى ربه ودعاه أن يذهب لأخيه، ومع شعوره بالجوع والإرهاق الشديد وحزنه على موت أخيه قد غلبه النوم ولم يصحُ منه.

فزع وخوف بقدوم الليلة الأخيرة:

وفي نفس السياق كان هناك رجلٌ لا حول له ولا قوة، كان رب أسرة لا ينام الليل ساهراً لحماية أسرته المكونة من زوجته وابنتيه وولد صغير، كان قلقاً – مضطرباً – لا ينام من بشاعة آكلي لحوم البشر، العصابات المرتجلة – عصابات الموت، ولكن هيهات، ففي إحدى الليالي وكان الرجل جالسًا أمام أسرته فاجأته تلك العصابات وقتلته، وسمع الكون الفارغ من كل كائن حي صياح زوجته وأبنائه – دون جدوى، كان مشهد حزين، عم الفزع والخوف من القادم، فقد ماتوا مرتين، واحدة من شدة الفزع، والأخرى عندما اندفع رجال الموت نحوهم، وأمسكوا بهم، فكانت الليلة الأخيرة.

كنا نسمع بعض الأمهات تَقُلْنَ من العبارات والحكم، منها أقطع من لحمي وأديه لأولادي، ها هي أم هندية أثناء المجاعة الكبرى ورؤيتها لأولادها يتساقطون موتاً من شدة الجوع، وقد تبقى لها طفلين من أصل خمسة، فقامت بتقطيع أجزاء من جثامين أبنائها الموتى لتقدمه طعاماً لطفليها، على أمل أن يؤجل موتهما بضعة أيام، كانت الأيام مريرة فقد ارتدى النهار والليل الموت الأسود، وخيم على الأماكن والأروقة صمت الموت في ظل الكارثة الشنيعة التي عمت البلاد، وتكتمل الكارثة بعد أن تُركت الجثث في الحقول وبجانب الأنهار لتأكلها الكلاب والصقور لأن أحداً لم يمتلك القوة لأداء الطقوس الأخيرة لكثير من الموتى.

الموت جوعاً أصعب من الموت بالرصاص:

هناك فرقٌ كبيرٌ بين الاستعمار وبين الاستعباد وبين القتل البارد الذي أتت به بريطانيا كأنها هبوب رياح موسمية مسمومة، كل هذا الجرم من الصعب وصفه وعندما

نسمع به لا نصدقه، عندما توارت الإنسانية غابت الشمس، لا وجود ولا معنى مع صرخات الأمهات والأطفال التي لم تستمر طويلا فتوقف الزمن فالموت خيم على المكان، سبات بريطانيا السودوي ألهمها الوحشية وجردها من الإنسانية، وحينما استفاقت رأت مأساة كبرى تدمع بسببها القلوب قبل العيون، مأساة مجاعة سببتها بريطانيا، ما أمر الغذاء الذي يأتي بالدماء، فقد وقعت الهند تحت سيطرة أجندة الحكم البريطاني الاقتصادية، لتعاني من مجاعات لا تُعد ولا تُحصى، وما فعلته بريطانيا في الهند عام ١٨٧٦م كانت الطامة الكبرى... موت مليون من الهنود في ذلك العام، فكتبت بحروف غائرة وصمة العار والمشهد الأسود المبكي الحزين.

الاستعمار البريطاني للهند:

(كان الاستعمار البريطاني في شبه القارة الهندية أحد أهم الأسباب التي جعلت الناس يموتون جوعاً)، عندما أصابت المجاعات البلاد، كان الحكام الأصليون سريعي الاستجابة لتفادي الكوارث الكبرى، وبعد مجيء البريطانيين، كانت أكثر المجاعات نتيجة لتأخر سقوط الأمطار، جنبا إلى جنب مع استغلال الموارد الطبيعية للبلاد من قبل البريطانيين لتحقيق مكاسب مالية خاصة بهم، ومع ذلك لم يكن ذلك كافيا للاعتراف من قبلهم بالدمار الذي أفضت إليه سياساتهم، بل إنهم لم يكونوا يكترثون سوى تدني عائدات الإتاوات التي خلفتها تلك المجاعات.

هل سافرت الأحزان بالعناقيد؟ أم إنها وصلت إلى محطة الأحزان:

ومرت أيام مأساوية على الهنود في هذا العام، فنرى امرأة وقد زحفت كأنها طفلة تحبو روت الأرض بدمائها، بعد قيام اثنين من الجنود الإنجليز باغتصابها، فقد كانا أشبه بجرزياني زمن الإحتلال الإيطالي في ليبيا في القرن العشرين، ثم خيم الظلام إيذاناً بموتها، وتمر عقارب الساعة سريعاً على موت أعداد غفيرة من الهنود أمام ضابط شاب إنجليزي، كان مع مجموعة من الإنجليز – فقد استفز من قبل هؤلاء لما بدر منهم من ضحكات على الهنود الأحياء الأموات، وقد احمر وجهه وظهرت عيناه وهي تشع منها نيران مثل نار الأخدود، فهم بسلاحه وأطلق منه الرصاص على رفاقه، لإحساسه الإنساني بالمأساة التي يمر بها هؤلاء، إلا أن ما قام به لم يغير من الأمر شيئاً، وظل

الأحياء الأموات ساكنين كأنهم يرسلون رسائل الأحزان الصامتة، لحين توقف عقارب الساعة.

حدثاً لا يخطر على بال كأنها شاهدت غرابيب سود:

كانت تردد يا «شيفا» يا «شيفا» (إله رئيسي في الهندوسية يرمز إلى الشر والقسوة والخراب، وينسب إليه النار فهو الملك المدمّر، وغالبا ما يسمى المسيطر)، سمعت صوته من الجانب الآخر فأسرعت في العدو إلا أنها توقفت وترددت في لقاء جائز أن يعانق الموت... فقد فات الأوان، وأمسك بها المجرم الإنجليزي، وكأنها شاهدت غرابيب سود، وتمنت الإمساك بأي طوق نجاة إلا أنها أمسكت بسراب، وتخطت خيالها الذي قادها واقعها هرباً إلى البحر، فتاهت بين أمواجه وكأنها ارتضت بعناق الأمواج.

وقد هلعت بشعرها المتناثر وصدرها الذي يتدلى كعناقيد العنب، وأخذت تعدو نحو البحر لعل أمواجه تمحي واقعها الأليم، وألقت بنفسها وأنفاسها داخل المياه وأخذتها الأمواج بعيداً بعيداً، وفي أثناء رحلتها داخل البحر تخيلت أنها فاقت مع غروب الشمس فوجدت نفسها في قاع البحر بدون ستائر... وتذكرت وحشية العدو مع شقيقتها وما فعل بها، فكان يومها الحزين في أعماق البحر الذي هدأ وسكن الموج بالأحزان.

وحتى نتذكر ما قام به الاستعمار البريطاني في الهند عن هذه المجاعة، التي تكاد أن تختفي من كتب التاريخ، الملقاة على موائد التاريخ المليئة بالقتل والفظائع والاستغلال، سنوات وسنوات مضت على هذه المجاعة التي راح ضحيتها أكثر من مليون إنسان، فقد قام الاستعمار الإنجليزي بإفقار الهند ونهبها وتجويع أهلها، ولكن السؤال من سيتذكر الموتى؟، فالجوع مرّ والموت جاء والحزن لن يكون ذا جدوى لدى الأحياء، وهذه المجاعة واحدة من أكثر النقاط السوداء في تاريخ بريطانيا العظمى في الهند، وقت أن كانت تحت سيطرة التاج البريطاني، وباتت هذه الواقعة نقطة تحول مهمة في التطور السياسي في الهند.

(مجاعة أوريسا الهندية)

الكارثة الكبرى وفرض بريطانيا الإتاوات اللامحدودة:

كان الفلاحون تحت حكم المغول يدفعون إتاوة محدودة من عائد الحصاد، وضمن ذلك عائد للدولة ومصاريف في متناول يد الفلاحين، وضمان تأمينهم في حال لم تسمح الظروف المناخية الطبيعية بجني المزيد من المحصول في المستقبل، ولكن بريطانيا كان لها رأي آخر، فقد فرضت الإتاوات، تصل إلى نصف المحصول، ولم يكن الفلاحون يدركون أن هذه الأموال التي يدفعونها تذهب إلى البريطانيين، بل كانوا يعتقدون أنها تذهب إلى حكامهم، وكان فائض المخزون بمثابة تأمين حياة الفلاح الهندي مع نقص المحصول، حتى أبت بريطانيا ذلك بزيادة دفع الإتاوات، فتدهور هذا الفائض بسرعة – سرعة منعت الهروب من الموت العظيم، وكأن بريطانيا تمهد الأرض لاستقبال الموت الأسود.

وقد رفعت شركة الهند الشرقية ضريبة الأراضي إلى ٦٠٪، من أجل تعويض العائدات التي فقدوها لموت الكثير من الفلاحين، وأفضى عدد أقل من الفلاحين إلى كميات أقل من المحاصيل وهو ما يعني إيرادات أقل، وبالتالي اضطر الذين لم يستسلموا بعد للمجاعة إلى دفع ضعف الضريبة لضمان ألا تعاني وزارة الخزانة البريطانية من أي خسائر خلال هذه الكارثة.

تحول شريان الحياة من الهند إلى أموال تجمعها بريطانيا:

قررت سلطات الاحتلال البريطانية زراعة المحاصيل النقدية – التجارية في ظل وجود حكام المغول، وكانت أهمية تلك المحاصيل لبريطانيا تصديرها، فأصبح المزارعون الذين

اعتادوا زراعة الأرز والخضروات مجبرين على زراعة النيلي، والخشخاش والمحاصيل النقدية الأخرى التي حققت قيمة سوقية أعلى بالنسبة لهم، ولكنها لم تكن تسمن من جوع السكان المحرومين من الغذاء، وفي الواقع كان الفلاحون على دراية بهذه المجاعة منذ أن جاء نذير الشؤم الأول من الرياح الموسمية وادخروا ما يكفيهم من الحبوب الغذائية، لكن الحكومة البريطانية أصرت على تصدير الحبوب، لذا لم يكن هناك فائض في المحاصيل الغذائية، في حال حدثت مجاعة، وكانت الأسباب الطبيعية تنذر بوقوع جفاف، وعدم توافر فائض من المحاصيل الغذائية نتاج الاستراتيجية الإنجليزية التي تستهدف الربح من دون الأخذ في الاعتبار احتياجات السكان، لذا كانت بريطانيا تربح وتكسب على حساب حياة سكان الهند، وكيف لا وقد قطعت شريان الحياة بها.

كما لم تقدم بريطانيا أي تدبير لإغاثة المتضررين أو مساعدتهم، بل رفعت نسبة الضرائب لتعويض أي نقص في الإيرادات، وعلى الرغم من أن المجاعات التي توالت على الهند، كانت دموية، فإن الحقيقة الصادمة هي أنه في الوقت الذي عانت فيه الهند من هذه المجاعة كانت صدّرت أكثر من ٢٠٠ مليون رطل من الأرز إلى بريطانيا، حيث رأت الإدارة الاستعمارية أن بلادها أحق بهذه الحبوب، فكان الاستعمار البريطاني يستمتع بالموت الأسود، هذه الكارثة الإنسانية من مجاعة أوريسا والمجاعات التي تلتها خاصة مجاعة «مدراس» (١٨٧٦م – ١٨٧٨م)، التي تسببت بريطانيا في موت خمسة ملايين من الهنود، كل هذه الكوارث دفعت الهنود إلى القتال ضد الحكم الاستعماري البريطاني.

وها هو تشرشل رئيس وزراء بريطانيا العظمى، يُدلي بتصريحات بغيضة بشأن الهند وشعبها، هذا الرجل بسبب سياسته قد تسبب في فقدان الملايين من الهنود حياتهم، غياب أبسط الاحتياجات الأساسية الغذاء، وقد كانت الجثث تترك في الحقول وبجانب الأنهار لتأكلها الكلاب والصقور لأن أحداً لم يمتلك القوة لأداء الطقوس الأخيرة لكثير من الموتى، وهؤلاء الذين لم يموتوا في القرى، سافروا إلى البلدات والمدن بحثاً عن الطعام، ثم يأتيهم الموت، فتمر الأحزان على عديد من المواقف، فمنها الأم التي قتلت أولادها بسبب الجوع والآلام ثم انتحارها، وأم تموت وتترك أبناءها يموتون جوعاً، وجندي بريطاني ينتحر بسبب مشاهدته رجل يأكل لحم ابنته الميتة.

(ظلم المجاعة - هياكل عظمية)

(أنا أكره الهنود، إنهم شعب همجي يعتنقون دين وحشي .....إنهم سبب المجاعة لأنهم يتكاثرون مثل الأرانب)

تشرشل رئيس وزراء بريطانيا

«بدا الجميع كهياكل عظمية يغطيها فقط الجلد»، عند حدوث المجاعة، وكان الناس يبكون بصورة يُرثى لها طلباً لماء الأرز، لأنهم كانوا يعلمون أن لا أحد لديه ما يعطيه من الأرز، لا يمكن لأحد سمع هذا البكاء أن ينساه طيلة حياته، وكانت المجاعة قد حدثت نتيجة إعصار وفيضانات في البنغال عام ١٩٤٢م، غير أن سياسات ونستون تشرشل حُملت مسئولية زيادة الوضع سوءاً، ففي عام ١٩٤٣م، قبل استقلال الهند بأربع سنوات، مات ما يقرب من أربعة ملايين من البنجلاديشيين من الجوع، عندما قام تشرشل رئيس وزراء بريطانيا بتحويل الطعام للجنود البريطانيين ودول مثل اليونان بينما تجتاح مجاعة قاتلة البنغال.

ظهور المهاتما غاندي:

(عندما تكون على حق تستطيع أن تتحكم في أعصابك أما إذا كنت مخطئاً فلن تجد غير الكلام الجارح لتفرض رأيك)

المهاتما غاندي

ناضل «غاندي»، بوصفه ناشطاً سياسياً ذكياً، من أجل استقلال الهند عن الحكم البريطاني، ومن أجل حقوق الفقراء، وقد اتبع سياسة المقاطعة السلمية مع بريطانيا، وتحظى سياسته في الاحتجاجات السلمية المجردة من العنف باحترام العالم حتى وقتنا الراهن، واستمر كفاح غاندي حتى حصل على استقلال بلاده في عام ١٩٤٧م، وأعتقد بعد مُضي سنوات عديدة من جرائم بريطانيا البشعة فإن الوقت قد حان لكي تعتذر الحكومة البريطانية للشعب الهندي عما فعلته بالهند في تلك السنوات.

هناك فرق

الإنسان المصري تغلبه العاطفة ..... قد ينسى ولا يتذكر، لكن التاريخ لا ينسى

التاريخ لا ينسى ما وقع من أحداث على مر الزمان، وتختلف الآراء حول فهم وتحليل وتفسير تلك الأحداث، إلا أن الحقائق لا تختلف بين طيات الصحف، ويسجل التاريخ الدور العظيم الذي قامت به مصر تجاه القضية الفلسطينية حتى وقتنا الراهن.

فلا ننسى الموقف البطولي الذي قام به الملك الراحل فاروق الأول ملك مصر والسودان، حينما خاض حرب ١٩٤٨م، عندما ألغت بريطانيا الانتداب على فلسطين، ثم إعلان اليهود (ديفيد بن غوريون الرئيس التنفيذي للمنظمة الصهيونية العالمية ومدير الوكالة اليهودية)، قيام دولة إسرائيل في ١٤ مايو ١٩٤٨م، وتعدي العصابات الصهيونية على عرب فلسطين بمساعدة موصولة من بريطانيا ومباركة الولايات المتحدة الأمريكية.

لذا كان موقف مصر إزاء الأحداث الجارية على أرض فلسطين وما يلحق بشعبها من جرائم وحشية، هو التصدي لهذه المؤامرة والجرائم التي ترتكب ضد عرب فلسطين، فقد خاضت مصر زعيمة العرب الحرب بجيشها العظيم ضد الميلشيات المسلحة، وقد كانت الغلبة للجيش المصري أكثر من مرة، فقد حقق الجيش المصري انتصارات عظيمة، وفرض مجلس الأمن هدنة وكانت الميلشيات اليهودية تنقضها، ثم تمكنوا بالمساعدة الأمريكية إلحاق الهزيمة بالجيش المصري والاستيلاء على فلسطين ما عدا الضفة الغربية وقطاع غزة والقدس القديم وبيت لحم، وهذه الهزيمة ليست عار على ملك مصر بل إنه نال شرف المحاولة، خلاف بعض الحكام العرب الذين وقفوا موقف المشاهدة فقط كأنها مباراة كرة قدم.

جمال عبد الناصر مُلهم المصريين والعرب:

ولا ننسى الزعيم جمال عبد الناصر رغم الكثير من سلبياته، فقد كانت أخطاؤه جسيمة بحجم زعامته، على سبيل المثال كان السبب المباشر في نكسة ٥ يونيو ١٩٦٧م، وفي المقابل كان شديد الإيمان بالعروبة وآماله لتحقيق وحدة عربية، رغم الكثير من التناقضات الشائكة لتحقيق ذلك، كما كان يحترق من أجل فلسطين، وها هو يقابل

الهزيمة بعزيمة صادقة عندما خاض حرب الاستنزاف، فخاض الجيش المصري معارك عديدة، شهدت بطولات مصرية، وتكبيد العدو الإسرائيلي خسائر فادحة.

وها هو ناصر يقول: سوف نعود إلى القدس وسوف تعود القدس إلينا ولسوف نحارب من أجل ذلك، ولن نلقي السلاح حتى ينصر الله جنده ويعلي حقه ويعز بيته ويعود السلام الحقيقي إلى مدينة السلام، (حتى إذا كانت مجرد شعارات)، ومع إيمان عبد الناصر بعروبته، كان أيضاً زعيماً ملهماً ليس للشعب المصري فحسب بل للشعوب العربية والأفريقية وكذا العديد من بقاع آسيا وأوروبا.

محمد أنور السادات والتلاعب بزعماء إسرائيل:

هذا الزعيم الذي كان يسبق عصره، لا ينساه التاريخ، ولا الشعوب وزعماء العالم لا يمكنهم نسيان هذا الزعيم إذا أرادوا ذلك، فهو بحق بطل الحرب والسلام، وعظمة السادات تتجلى في ذكائه، فيسجل التاريخ ملحمة أكتوبر ١٩٧٣م، وقد تلقت إسرائيل درساً مفزعاً، ومبادرة السلام، وكامب ديفيد ومعاهدة السلام، يا له من زعيم عظيم الذي استرجع الأرض، (أرض الفيروز)، بعد غياب دام اثنتا عشر عاماً، وها هي اعترافات زعماء إسرائيل، عندما قال «مناحم بيجن» بأن السادات ضحك علينا وأخذ منا سيناء مقابل كلام مكتوب على ورقة بيضاء (اتفاقية السلام)، أعادتنا لما قبل عام ١٩٦٧م، لذا اعتزل «بيجن» السياسة ويرجع الفضل في ذلك للزعيم الغائب الحاضر أنور السادات، كما قالت عنه «جولدا مائير»: «السادات» هو ثعلب العرب، أما «موشيه ديان» فقد عانى من الاكتئاب الذي دام معه حتى موته عام ١٩٨١م.

رحم الله الزعيم السادات الذي استشهد في حضن وطنه يوم عيده وعيد النصر لكل المصريين في السادس من أكتوبر عام ١٩٨١م، وجاء في جريدة الأهرام: مصر تودع بالدموع و الألم أعظم أبطالها – موكب حزين يحيط بشهيد مصر محمد أنور السادات في رحلته الأخيرة – دفن جثمان الزعيم الراحل في مقبرة تواجه المنصة التي استشهد فوقها – وكان رؤساء وممثلو العالم في وداعة الأخير تحية للبطل الكبير وزعيم مصر.

حسني مبارك في صحبة ثلاثين عاماً:

عانى الشعب المصري في فترة حكم مبارك بالتحديد ثلثي حكمه – عشرون عاماً، عانى المصريون من الجهل والمرض والفقر، وعدم احترام الإنسان، وانتشار الفساد، ولا ننسى مقولة «زكريا عزمي» في مجلس الشعب، (الفساد للركب ياريس)، فقد أصبح

الفساد ممنهج فكانت له الغلبة، وتزوير انتخابات مجلس الشعب خاصة عام ٢٠١٠م، ومأساة الطرق والنقل بكافة أنواعه، مما عرَّض المصريين للموت جراء هذا الإهمال، وفقدان البنية التحتية، والتلوث والانفجار السكاني، ومجيء النباشين، وظهور الصفوة في عهده، فقد كان أسوأ عهد هو عهده، ويضاف إلى ذلك غزو العولمة الثقافية الغربية التي بدلت أفكار وقيم كثير من أفراد المجتمع المصري، وباختصار قد عانت مصرنا الحبيبة من الفساد والإهمال الجسيم في كل شيء.

ورغم ذلك بغض النظر عن ما ذكر فإن أسوأ ما يسجله التاريخ لمبارك ما قام به تجاه حرب العراق عام ١٩٩١م، وتجاه غزة عام ٢٠٠٨م – ٢٠٠٩م.

اعتقد أن الشعب مجرد قطيع يسوقه كيفما يشاء ومتى أراد، وإن البلاد ملكاً له، ففعل الكثير والكثير بالعباد دون هوادة، لم يفكر بالأقدار التي بيد الله سبحانه وتعالى، فلو كان تذكر الله ما كان نهج هذا النهج أو قام ما قام به من أعمال.

كلما أتذكر أن وزيرة في مصر لم تحصل على شهادات علمية سوى الإعدادية فقط، وزوجها دبلوم صنايع كان يحاضر في إحدى الجامعات، لماذا؟ هل لا يوجد علماء في مصر؟ وما فائدة العلم إذاً؟ في ظل حكم مبارك «أكاد أن أجن».

النقطة السوداء الأولى ١٩٩٠م ـ ١٩٩١م:

كان «مبارك» لا يبالي بالشعب المصري، هو الذي قال على فئة من هذا الشعب خليهم يتسلوا، لم يجتهد من أجل هذا الشعب خاصة في العشر سنوات الأخيرة من حكمه، كما تسبب في معاناة الشعب اقتصادياً، وعرَّض أبناءه للموت في حرب ما كان لنا أن نواجهها، حرب في مواجهة العراقيين العرب، وإذا حصرنا تاريخ مبارك المملوء بالسوء والسواد، فنرى أكبر نقطتين تتسم بالسواد وهما الأبشع، حرب تحرير الكويت عام ١٩٩٠م – ١٩٩١م، تكونت من قوات التحالف المكون من أربع وثلاثين دولة بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية ضد العراق، بعد موافقة مجلس الأمن على تحرير الكويت من الاحتلال العراقي، – المضمون إزالة قوة العراق والسيطرة الغربية الأمريكية على المنطقة – وبالطبع كانت مصر ضمن هذه القوات بقرار من حسني مبارك، وشارك الجيش المصري في السعودية بنحو ٣٤ ألف مقاتل في المرتبة الرابعة من حيث عدد القوات المشاركة بعد كل من الولايات المتحدة الأمريكية أكبر الدول المساهمة بقوات، بعدد

جنود تخطى ٥٤٠ ألف مقاتل، تلتها المملكة العربية السعودية بـ ٩٥ ألف جندي، ثم المملكة المتحدة بـ ٤٥ ألف جندي، الإشكالية هنا أنه تحالف دولي ضد دولة عربية، نعم احتلت دولة عربية أخرى، ولكن يستمر تفاوض عربي تحت مظلة جامعة الدول العربية وفقاً لميثاق الجامعة، ولكن مبارك للأسف قد قبل هذا التحالف والانصياع له، كأنه كان يسعى وراء هذا التحالف الدولي ضد العراق بدلاً من التمهل لتحقيق نتائج يتقبلها جميع الأطراف بالطرق الدبلوماسية.

النقطة السوداء الثانية ٢٠٠٥م:

أغلق المعبر ومات الآلاف من الأطفال والنساء والشيوخ، ليته وقف صامتاً، ليته ما كان في المكان ولا الزمان، لكنه حين تكلم تُرى ماذا قال؟ قال: الأرض أرض إسرائيل (الصهاينة)، وعندما سُئل مبارك عن عناقيد الغضب، قال: بلدهم وهم أحرار، وقادة حماس هم الذين تسببوا في ذلك، حتى إذا – فلا أدري من أين جاء بهذا الكلام؟ أين العروبة؟ أين الوطنية؟ أين الإنسانية؟

لا أستطيع فتح معبر رفح إلا بإذن من إسرائيل..... حسني مبارك:

لم يكن أحد يدرك أن وزيرة الخارجية الإسرائيلية تسيبي ليفني يمكن أن تأخذ الموافقة على قتل المئات من الفلسطينين من عاصمة عربية كما حصل وأخذتها من القاهرة زمن مبارك، وعندما كان يتحدث في التليفزيون المصري عن ضرب إسرائيل لقطاع غزة، كان فخوراً بأنه يأخذ الإذن والتعليمات من الكيان الصهيوني تسمعه كأنه يتغنى بجثامين الأطفال والنساء، ليته ما كان هذا الرئيس ليته اقتُلع قبل أن يُقتلع، لكنها الأقدار، فقد منح لرئيسة الدبلوماسية الإسرائيلية هذا الخيار، خيار قتل مئات الفلسطينيين وتشريد الآلاف وتدمير غزة عن بكرة أبيها.

وأعطى الموافقة لـ «تسيبي ليفني»، وزيرة خارجية إسرائيل وقتئذ، ثم ترك البقية لوزير الخارجية المصرية «أبو الغيط»، لكي يبرر ويمنح الغطاء المناسب لكسب شرعية قتل الفلسطينيين، وهو ما فعله عندما قال بالحرف في المؤتمر الصحفي رفقة وزيرة خارجية إسرائيل، إن التهدئة انتهت، قبل أن يخرج مبارك نفسه بتصريح يقول فيه أنه لا يمكن لمصر أن تفتح معبر رفح بدون موافقة إسرائيل، لأنها الدولة المحتلة له،

ويجب أن توافق هي على فتحه أولاً، (رحم الله السادات عندما اختلف مع مناحم بيجين في كامب ديفيد حول القضية الفلسطينية قال له صراحة: القدس عربية) كأن مبارك يستحضر المستقبل القريب، رغم خلعه من حكم مصر في تلك الفترة، عندما أغلقت أبواب استاد بورسعيد مساء يوم الأربعاء الأول من شهر فبراير عام ٢٠١٢م، وكان نتيجتها المباشرة، ذهاب اثنين وسبعين مواطن إلى طي النسيان، ومئات المصابين، فكانت كما سميت حينها مجزرة – مذبحة.

الراعي الرسمي لإسرائيل ومنحها تأشيرة القتل:

نستطيع القول بأن مبارك شارك في تلك الجريمة البشعة (مجزرة غزة)، وتصريحاته وتمسكه بالمحافظة على عرش المحروسة حتى لو على حساب شعب أعزل كأنه أراد أن يطرح هذا الشعب، بإقامة جسر من الموتى، كما كان يغضب بشدة لأي حركة مقاومة ضد الكيان الصهيوني كأنه الراعي الرسمي لإسرائيل، كل هذا جعله يفعل ما وراء العقل والمنطق، كما كان يفعل «بول بوت» في كمبوديا، لكن مبارك فقد للذكاء والفطنة والدهاء وللكثير من الإنسانية وهو يطبق هذا المنطق ويشرع قتل المئات من الفلسطينيين بداعي أنه حذر حماس مما يمكن أن يقع، وحتى إذا كانت هناك أخطاء، هل يترك الأطفال والنساء والشيوخ والشباب يموتون بنيران إسرائيل؟ أين هي العدالة؟ فقد فرت عنه وغابت الإنسانية، فبحق كان أسوأ من الرصاص الذي تلقاه الفلسطينيون من الصهاينة .... كان أسوأ ما يكون على الساحة السياسية.

الرصاص المصبوب ومجزرة غزة:

شن الجيش الإسرائيلي هجوم وحشي خلال عملية عسكرية على قطاع غزة في فلسطين، استمرت ٢٣ يوماً، من يوم ٢٧ ديسمبر ٢٠٠٨م إلى يوم ١٨ يناير ٢٠٠٩م، تأتي العملية بعد انتهاء تهدئة دامت ستة أشهر كان قد تم التوصل إليها بين حماس من جهة وإسرائيل من جهة أخرى، بمباركة «مبارك» في يونيو ٢٠٠٨م، وخرقت إسرائيل التهدئة ولم تلتزم من حيث رفع الحصار الذي فرضته على غزة، مما دفع حماس لعدم قبول تمديد التهدئة.

العملية العسكرية الإسرائيلية:

قبل انتهاء التهدئة في تاريخ ٤ نوفمبر ٢٠٠٨م قامت إسرائيل، بخرق جديد لاتفاقية التهدئة، وذلك بتنفيذ غارة على قطاع غزة، نتج عنها قتل ستة أعضاء مسلحين من حماس، وفي يوم الجمعة ١٩ ديسمبر ٢٠٠٨م قامت عناصر تابعة لحركتي حماس والجهاد الإسلامي في غزة بإطلاق أكثر من ١٣٠ صاروخاً وقذيفة هاون على مناطق في جنوب إسرائيل، بدأت العملية العسكرية الإسرائيلية، واستخدمت القنابل العنقودية، يوم السبت ٢٧ ديسمبر ٢٠٠٨م في الساعة ١١:٣٠ صباحاً بتوقيت فلسطين، وأسفرت عن استشهاد الكثير من الرجال والشيوخ والنساء والأطفال جراء العدوان الصهيوني، وقد ازداد عدد شهداء غزة جراء هذا العدوان على القطاع إلى ألف وثلاثمائة وثمان وعشرين شهيداً، والجرحى قد بلغوا خمسة آلاف وأربعمائة وخمسين جريحاً، بعد أن تم انتشال مائة وأربعة عشر جثة لشهداء منذ إعلان إسرائيل وقف إطلاق النار، وفي المقابل مقتل عشرة جنود إسرائيلين وثلاثة مدنيين وإصابة أربعمائة آخرين أغلبهم مدنيين أصيبوا بالهلع وليس إصابات جسدية حسب اعتراف الجيش الإسرائيلي لكن المقاومة أكدت أنها قتلت قرابة مائة جندي خلال المعارك بغزة.

أعلنت الحكومة الإسرائيلية أن العملية «قد تستغرق وقتاً ولن تتوقف حتى تحقق أهدافها بإنهاء إطلاق الصواريخ من غزة على جنوب إسرائيل»، فيما أعلنت حماس نيتها «متابعة القتال إلى أن توقف إسرائيل هجماتها وتنهي الحصار المفروض على القطاع».

مجزرة السبت الأسود:

كان اليوم الأول من الهجوم اليوم الأكثر دموية من حيث عدد الضحايا الفلسطينيين في يوم واحد منذ حرب ١٩٤٨م، إذ تسبب القصف الجوي الإسرائيلي في مقتل أكثر من ٢٠٠ فلسطيني وجرح أكثر من ٧٠٠ آخرين، مما أدى إلى تسمية أحداث اليوم الدامية بمجزرة السبت الأسود في وسائل الإعلام.

مبارك يفتح معبر رفح ليس للأحياء بل للأموات والجرحى:

أعلن حسني مبارك في ٣١ ديسمبر ٢٠٠٨م بأنه لن يفتح معبر رفح دون حضور السلطة الفلسطينية ومراقبين أوروبيين، هذا وقد حمّل أيضاً «حماس» المسؤولية عن هذا الهجوم الإسرائيلي وقد جاء موجهاً كلامه لقادة حماس: «لقد حذرناكم مراراً من أن رفض تمديد

التهدئة سيدفع إسرائيل للهجوم على غزة، وأكدنا لكم أن إعاقة الجهد المصري لتمديد التهدئة هي دعوة مفتوحة لإسرائيل لهذا الهجوم» وأضاف مُصرحا في خطابه الذي نقله الإعلام المصري «بذلت جهودا مضنية على مدار الأشهر الستة الماضية لتثبيت التهدئة في غزة وسعيت دون كلل لتمديدها»، وفي نفس الوقت طالب إسرائيل بوقف «عدوانها الوحشي» على غزة بشكل فوري، وكانت مصر قد سمحت يوم ٢٧ ديسمبر بدخول المساعدات إلى غزة خلال معبر رفح، كما سُمح للجرحى والمصابين بدخول مصر لتلقي العلاج، وأكد الرئيس مبارك في يوم ٢ يناير٢٠٠٩م أن معبر رفح مفتوح في الاتجاهين لاستقبال الجرحى والحالات الإنسانية ونقل المساعدات، كما أكد على التزام مصر باتفاقية فتح المعبر بالرغم أن مصر ليست طرفا فيها – والتي تنص على انسحاب التواجد العسكري الإسرائيلي من معبر رفح بشرط عدم فتحه إلا في حضور السلطة الفلسطينية ومراقبين من الاتحاد الأوروبي – بالإضافة إلى اعتباره إسرائيل الدولة المحتلة للأراضي الفلسطينية والمسؤولة عما يدخل ويخرج إلى أراضي القطاع عبر المعابر، وأضاف أن حماس تريد معبر رفح لها وحدها مستشهداً بمنع حماس خروج حجاج فلسطينيين عبر معبر رفح لأداء فريضة الحج.

هذا مبارك لقد همس له الشيطان فترحم على مناحم بيجين، وذهب بعيداً عندما ردد أكثر من مرة، لإسرائيل الحرية المطلقة في أرضها تفعل كيفما تشاء، كان مبارك صفراً وعاش صفراً، ليبقى الحزن مستمر بين الطرقات والشوارع والحارات، بين الركام ووسط الرماد، بين الأمهات والصبية والأولاد.

اجتماعات الدورة ٧٤ للجمعية العامة للأمم المتحدة، بنيويورك ٢٠١٩م:

منقذ مصر يؤكد على ثبات الموقف المصري تجاه القضية الفلسطينية، قال السيسي خلال كلمته، إن تصفية الأزمات المزمنة الموروثة، شرط ضروري لأي عمل جاد لبناء منظومة دولية أكثر فاعلية، والمثال الأبرز في هذا الشأن، هو أقدم أزمات منطقة الشرق الأوسط، وهي القضية الفلسطينية، مؤكدا أن عدم التوصل لحل عادل للقضية الفلسطينية استنزاف لمقدرات الشرق الأوسط، وأن بقاء هذه القضية دون حل عادل مستند إلى قرارات الشرعية الدولية، يفضي إلى قيام الدولة الفلسطينية المستقلة، وعاصمتها القدس الشرقية، لا يعني فقط استمرار معاناة الشعب الفلسطيني، وإنما يعني أيضا استمرار مرحلة الاستنزاف لمقدرات وموارد شعوب منطقة الشرق الأوسط.

وقال «السيسي» خلال كلمته: نحن بحاجة لقرارات رشيدة تمنح الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني وتحقق السلام العادل والشامل، وتحقق الأمن والاستقرار في المنطقة بأكملها، وقال: أستطيع بضمير مطمئن، أن أؤكد ما سبق وذكرته على هذا المنبر في السنوات الماضية، من أن العرب منفتحون على السلام العادل والشامل، وأن المبادرة العربية للسلام لا تزال قائمة، وأن الفرصة ما زالت سانحة، لبدء مرحلة جديدة في الشرق الأوسط، مؤكدا «أننا بحاجة لقرارات جريئة تعيد الحق للفلسطينيين وتفتح الطريق أمام نقلة كبرى في واقع هذه المنطقة، في تاريخ النظام الدولي كله يترتب عليها إقامة منظومة أمنية واقتصادية في منطقة الشرق الأوسط، قوامها السلام والأمن والتعاون والمصلحة المشتركة.

القضية الفلسطينية ستظل حاضرة في قلوب وضمائر الدول الإفريقية:

في الجلسة الافتتاحية للقمة الإفريقية، في التاسع من فبراير عام ٢٠٢٠م، خلال كلمته قال «السيسي»: «القضية الفلسطينية ستظل حاضرة في قلوب وضمائر الشعوب والدول الإفريقية، التي ستستمر في تضامنها مع الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني». وأكد على موقف مصر الثابت تجاه حل القضية الفلسطينية من خلال إقامة دولة مستقلة ذات سيادة على الأراضي الفلسطينية المحتلة وفقا للشرعية الدولية، وجاء حديث «السيسي» خلال استقباله نظيره الفلسطيني، محمود عباس، الذي يزور القاهرة حالياً للمشاركة في اجتماع وزراء الخارجية العرب، وأضاف أن «مصر مازالت في طليعة الدول الساعية لإحلال السلام الشامل والعادل في منطقة الشرق الأوسط، حيث تبنت مصر التعايش السلمي ونبذ العنف كنهج استراتيجي راسخ لسياستها على مدار أكثر من ٤٠ عاماً، كرست خلالها جهودها لنشر تلك الثقافة في المنطقة كسبيل وحيد لتحقيق الأمن والاستقرار والتنمية والازدهار لشعوبها ولتغير واقعهم إلي الأفضل»، وقال الرئيس المصري إنه في نهاية المطاف لا بديل عن المفاوضات المباشرة بين طرفي النزاع حتى يمكن التوصل إلى تسوية يتم التوافق عليها في إطار شامل يضمن استدامة تلك التسوية، بما ينهي معاناة الشعب الفلسطيني باستعادة كامل حقوقه المشروعة، ويحافظ على حقوق كافة الأطراف في الحياة والعيش في أمن واستقرار وسلام.

وعليه فإن كلمة الرئيس السيسي في الجمعية العامة للأمم المتحدة بدورتها ٧٤ كانت متكاملة وحملت الكثير من المعاني والمضامين وشخصت الأوضاع، وقدمت الحلول التي إذا تم تنفيذها لعاش العالم في سلام وقُضي على أغلب المشكلات القائمة في العالم، ولذلك تطرق إلى كافة القضايا التي تهم الرأي العام العالمي، وعلى رأسها القضية الفلسطينية التي تُعد المشكلة الرئيسية في المنطقة التي هي بحاجة لحل جذري ينهي أكثر من سبعين عاماً من الصراع القائم.

كما قال الرئيس نحن بحاجة لقرارات جريئة تُعيد الحق للفلسطينيين وتفتح الطريق أمام نقلة كبرى في واقع المنطقة، متابعاً أنه بعد أن صدر أكثر من ٨٦ قراراً من مجلس الأمن، وأكثر من ٧٣٠ قراراً من الأمم المتحدة، لم تطبق وتضع حداً للصراع القائم، فوجد الرئيس السيسي ضرورة أخذ قرارات جريئة من قبل المجتمع الدولي وإسرائيل باتجاه تحقيق السلام، كما استشهد الرئيس السيسي في أحاديثه باتفاقيتي السلام المصرية الإسرائيلية – الأردنية الإسرائيلية، لكي يبعث برسالة إلى المجتمع الإسرائيلي وحكومته بأن الاحتلال والتصعيد والاستيطان والتنكر لحقوق الشعب الفلسطيني، لن يجلب الأمن والأمان لإسرائيل وللمنطقة، فعلى إسرائيل أن يكون لديها الجرأة في اتخاذ القرار والذهاب إلى السلام، ولكن إن بقيت متمسكة بتجاهل مواصلة الاحتلال والاعتداءات والاستيطان، فهي بذلك تتنكر للقانون الدولي ولقرارات الشرعية الدولية والاتفاقيات الدولية مما يهدد المنظومة الدولية ومؤسساتها.

مجازر أخرى من إسرائيل والاعتداء على غزة:

تفجرت الأحداث مساء يوم ٧ مايو٢٠٢١م، بعدما اقتحم آلاف من جنود الشرطة الإسرائيلية –في عمليةٍ استفزازيةٍ – باحات المسجد الأقصى واعتدوا على المصلين ما أسفر عن إصابة أكثر من ٢٠٥ مدني فلسطيني في المسجد الأقصى وباب العامود والشيخ جراح، وأعلن مجلس الوزراء الإسرائيلي في ١٠ مايو ٢٠٢١م اتفاقه على شن عملية عسكرية على قطاع غزة، فوقعت مواجهات عنيفة صباح يوم القرار الكارثي بعد اقتحام آلاف من أفراد الشرطة الإسرائيلية المسجد الأقصى وأسفرت عن إصابة أكثر من ٣٣١ مدني فلسطيني كان بينهم ٧ حالات خطرة للغاية ومسعفون وصحفيون في المسجد ومحيط البلدة القديمة.

دعوة السيسي لوقف العنف وحقن الدماء من أجل عودة الاستقرار:

فكانت دعوة السيسي لوقف العنف وحقن الدماء من أجل عودة الاستقرار لقطاع غزة والأراضي الفلسطينية، ومنطقة الشرق الأوسط، كما شدد على وقف التصعيد العسكري في قطاع غزة، وقال السيسي إن مصر تبذل جهوداً دبلوماسية مع جميع الأطراف لإيجاد حل للصراع وأكد أن الحل يتحقق بإقامة دولتين لتثبيت الاستقرار وعودة الهدوء الشامل في المنطقة.

عبد الفتاح السيسي وتبنيه حل هذه الأزمة:

الدور المصري الذي قاده السيسي قد حقق تهدئة غزة بنجاح، فمنذ اليوم الأول لاندلاع المواجهات بين الفصائل الفلسطينية وإسرائيل، كان الدور المصري حاضرا بقوة سعيا للتهدئة، حتى تمكنت القاهرة من إنجازها وأعلن الجانبان الموافقة على مقترح التهدئة المصري ودخلت حيز التنفيذ، هذا الدور الذي نجح فيه السيسي قد تفوق على زعماء العالم عندما طرح الأزمة في باريس عندما التقى مع الرئيس الفرنسي إيمانويل ماكرون والملك عبدالله الثاني ملك الأردن، وأطلق من هناك مبادرة لتخصيص نصف مليار دولار لإعمار غزة ووجه بفتح المستشفيات المصرية ومعبر رفح لنقل المصابين الفلسطينيين للعلاج داخل مصر.

السيسي وعودة دور مصر القيادي في تبني القضية الفلسطينية:

لقد أشاد خبراء ومراقبون بجهود مصر لإنهاء الحرب، واعتبروها امتدادا لدورها التاريخي والقيادي في تبني القضية الفلسطينية ورعاية وحماية الشعب الفلسطيني، وشملت جهود هذا الرجل المحنك سياسياً ودبلوماسياً وقبل هذا وذاك إنسانياً أكثر من محور، أولها اتفاق الطرفين على وقف إطلاق النار ثم تثبيته، والوصول إلى تفاهمات لإبقاء الأوضاع هادئة لأطول فترة ممكنة، بما يُسهم في فعالية التحركات التي ستقوم بها الدولة المصرية في الفترة المقبلة، وتابع الخبراء أن تحركات القاهرة كانت ولا تزال على أكثر من مستوى، حيث أرسلت في بداية الأزمة وفدا أمنيا ودبلوماسيا إلى غزة وتل أبيب لإجراء مباحثات مع الجانبين ومتابعة تطور الأوضاع على الأرض.

تحرك السيسي فاق التوقعات العالمية:

إن تدخل عبد الفتاح السيسي في تلك الأزمة، فاق التوقعات المحلية أو العالمية، وإن الموقف المصري الساعي للتهدئة مدفوع بالحرص على استقرار المنطقة بالكامل، فضلا عن حماية الأمن القومي المصري عندما تكون غزة هي ساحة المواجهات، وكل ما سبق يؤكد على الفرق الكبير بين الرؤساء السابقين لمصر وبين هذا الرجل الوطني الذي يريد بإخلاص ووطنية أن يجد حلاً للقضية الفلسطينية.

سُكنى المقابر «ظاهرة تنفرد بها مصر على المستوى العالمي»

(عندما تفكر في بعض الأشياء تجدها مستحيلة... فعاود التفكير ربما تنجح وتصل إليها)

إن المقابر لها أصحابها الذين انتقلوا للحياة الأبدية، فهي أمكنة لهم وليس لغيرهم، فهي مرقدهم وليست مدن ومساكن خالية، نعم هناك العديد من المشكلات التي يواجهها الإنسان متى حيا، ومنها مشكلة الإسكان التي يعاني منها الآلاف من سكان المعمورة وخاصة في الدول النامية والفقيرة، وتُعد هذه المشكلة من أخطر المشكلات التي يواجهها الإنسان، وتكمن خطورتها في أنه يتمخض عنها العديد من المشكلات مثل ظهور العشوائيات، البطالة، التسول، الجريمة، تعاطي المخدرات، زيادة الأمية، عمل الأطفال، تلوث البيئة وغيرها من المشكلات التي تتسبب في معاناة الدول النامية والفقيرة، ويسكن أكثر من مائتي مليون شخص في النطاقات الفقيرة التي تحيط بالمدن الكبرى في الدول النامية حيث يعاني هؤلاء من ظروف معيشية بالغة الصعوبة كما يعانون من الفقر الشديد ويتعرضون لسوء التغذية ونقص الخدمات والمرافق الأساسية، ويعيشون في الأكواخ ومدن الصفيح وفي مناطق أخرى وضعوا أيديهم عليها بصفة غير شرعية فيتكدسون في أزقة موحلة تقوم على جوانبها أكواخ مبنية ومسقوفة بمواد مجمعة من هنا وهناك وطموح لا يتجاوز توفير الحد الأدنى من الغذاء لأناس يتضورون جوعاً، والاحتماء من مطاردات رجال الأمن المتوقعة في كل حين، وكسب العيش يوماً بيوم، ورغم أن المظهر العام والأصول التاريخية تتغاير بين المدن الضائعة التي يطلق عليها مدن الفقراء التي تنتشر على مستوى العالم وخاصة العالم النامي، مثل مدينة مكسيكو سيتي، ومدينة كلكتا التي يطلق عليها مدينة الفقراء، والأكواخ المنتشرة من الصفيح والأخشاب في ضواحي القاهرة، فضلاً عن ظاهرة سُكنى المقابر التي تنفرد بها مصر.

(قسوة يومية)

وعلى الرغم من إعلان الأمم المتحدة عام ١٩٨٧م عاماً دولياً لإسكان من لا مأوى لهم، إلا أنه ومع الألفية الثالثة، لا زالت توجد نسبة كبيرة من المساكن في الدول النامية تشيد قبل الحصول على ترخيص ودون تخطيط مما يؤدي إلى زيادة العشوائيات، كما يوجد الآلاف من البشر بلا مأوى ويعيشون في الشوارع، أو في مساكن غير آمنة، أو من يعيشون في غرفة واحدة لا تصلح للسكن الآدمي، ويشير «شارلز إبرامس» Charles Abramas إلى أن في بنما يسكن عشرون شخصاً في غرفة واحدة، كما أكد «روبرت سميث»RabertC shmitt أن نسبة ٧٣٪ من سكان الأحياء المتخلفة في هونج كونج يعيشون في حجرات يقسمونها إلى مربعات صغيرة تفصل بينها ستائر، وتستخدم هذه المربعات للنوم والجلوس ومخازن للحاجيات الشخصية، ورغم ذلك فهم يفضلون العيش هكذا مع الأحياء عن العيش مع الأموات في المقابر، ولكننا نرى على النقيض انفراد المصريين بسكن المقابر مع الأموات وممارسة حياتهم الطبيعية بها كأنهم يعيشون بين أناس أحياء وليسوا أموات أو كأنهم يريدون أن يتمتعوا بالهدوء والسكون الذي يعم القبور.

هذا وقد أوضح التقرير السنوي للتنمية البشرية لعام ٢٠٠٥م الصادر عن برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، بأن أوضاع الكثير من دول العالم، خاصة البلدان النامية تعاني من فقر شديد وتدهور بمستوى المعيشة التي أصبح حالها أسوأ بكثير مما كانت عليه عام ١٩٩٠م، لذا دعا التقرير – الدول الغنية إلى احترام تعهداتها بمساعدة تلك الدول لكبح الفقر الذي تحول من شبح إلى غول مخيف، حيث إن أكثر من عشرة ملايين طفل يموتون

سنوياً، فالفقر يقتل طفلاً كل ٣ ثوان في العالم، ومن يحيا من هؤلاء الأطفال لا يحيا مرحلة طفولته، ولا يعلم عنها شيئاً كمثل طفل ولد أعمى لا يرى شيئًا.

كما يوجد حوالي ٢,١ مليار شخص من سكان العالم يعيشون بأقل من دولار واحد في اليوم حسب تقارير التنمية البشرية، وأن حوالي ٨٥٠ مليون من الناس يبيتون جوعى كل يوم، فهم يعيشون في حالة فقر مدقع، فالفقر يتخطى مفهوم كونه نقص في الدخل، فهو يمثل سلسلة متصلة من حلقات الحرمان والتي تشمل سوء الحالة الصحية وتدني مستوى التعليم والافتقار إلى الحصول على الخدمات الاجتماعية الأساسية وإعاقة فرص مشاركة المواطنين في العمليات التي تؤثر على حياتهم، في حين أن النمو الاقتصادي يؤدي دوراً محورياً في تحقيق التقدم البشري، إلا أنه غير كاف لخفض معدلات الفقر، لذا يعتمد برنامج الأمم المتحدة الإنمائي على مقاربة متعددة الأوجه للحد من الفقر تركز على العمل مع الدولة والشركاء الدوليين لتطبيق خطط وسياسات محددة تجعل النمو أكثر شمولاً للكافة وتتيح متابعة التقدم على مستوى الاقتصاد الكُلي، وخفض معدلات الفقر لأن الفقراء هم الذين يتحملون الأعباء الأكثر خطورة، وهناك ما يقرب من ١,١ مليار شخص في الدول النامية يعانون من مشكلة المياه الملوثة، وفي عام ٢٠٠٧م توفي حوالي ٨,١ مليون طفل بسبب كارثة المياه الملوثة.

(المقابر والمياه الملوثة و الحياة الحزينة)

ويرجع ذلك لأن الكثير من سكان المناطق العشوائية وسكان المقابر يعانون من عدم وصول المياه النظيفة إليهم، ويتضح بأن الفقراء هم الذين يتعرضون للأزمات الأكثر شدة بصفة مستمرة لا تنقطع.

وما أكثر العشوائيات والفقراء في مصر رغم أن مساحتها تزيد عن مليون كم٢ إلا أن الغالبية العظمى من سكانها يتركزون في وادي النيل وعلى مشارفه في مساحة لا تتجاوز ٤ ٪ من إجمالي مساحة البلاد، ولا يقابل النمو السريع المطرد في السكان إلا القدر الضئيل من الامتداد العمراني في الرقعة الصحراوية غير المستغلة والتي تمثل ٩٦ ٪ من مساحة مصر مما يترتب عليه الارتفاع المستمر في الكثافة السكانية في هذه المساحة المحدودة حتى أنها وصلت في مدينة القاهرة إلى أعلى معدل لها في العالم، وقد تسبب التكدس السكاني بها إلى إحداث خلل في الزحف العمراني فأصبحت المدن الجديدة متلاصقة مع العاصمة مما ترتب على ذلك القصور في خدماتها نتيجة لفشل المدينة – عمرانيا واقتصاديا واجتماعيا – عن إمكانية استيعاب الزيادة السكانية، ويرجع ذلك لزيادة حجم الكتلة العمرانية للمدينة بصورة غير مدروسة أو مخططة وهو ما يعرف بالتضخم العمراني.

(أحياء بلا حياة)

وقد أشار آخر تقرير أصدره الجهاز المركزي المصري للتعبئة والإحصاء لعام ٢٠٠٧م إلى أن عدد سكان مصر بلغ عام ٢٠٠٦م أكثر من ٧٣ مليون ونصف المليون نسمة، والحقيقة أن عدد سكان القاهرة هم أكثر نمواً وهذه الزيادة المطردة لا ترجع فقط إلى زيادة نسبة المواليد على نسبة الوفيات وإنما ترجع أيضاً إلى توالي الهجرة إلى القاهرة، وكذا عدم تحديد الأحياء، وتداخل المناطق الصناعية في المناطق السكنية، وشغل المقابر مساحة واسعة من تلك المناطق.

كما تمتد الأحياء الفقيرة أو العشوائية والتي تعرف باسم الأحياء غير الرسمية على رقعة تعادل نصف مساحة العاصمة المصرية، ويقدر عددها بنحو ١٠٣٤ منطقة، منها

٩٠٣ منطقة مطلوب تطويرها وهنالك ٨١ منطقة مطلوب إزالتها، ويسكن في تلك الأحياء العشوائية نحو ٦,١٢ ميلون نسمة، ويشكلون نحو ٤٦٪ من إجمالي سكان المراكز، كل ذلك يستدعي ضرورة النظر في إعادة تخطيط القاهرة، ونتيجة للازدحام الشديد وقصور الخدمات تتعرض القاهرة للعديد من المشاكل الصحية والاجتماعية والبيئية مثل ارتفاع نسبة التلوث بها إلى أكثر من معدل الأمان المسموح به دوليا، ومن ثم يصعب ترجمة كل هذا في صيغة خسائر مادية وصحية أو حتى معنوية، لكن أخطر مشكلة هي بلاشك مشكلة الإسكان التي تفاقمت إلى حد كبير، فنسبة كبيرة من مباني القاهرة متداعية متهالكة وآيلة للسقوط ونسبة أكبر تجاوزت عمرها الافتراضي.

ولذلك أطلقت منظمات المساعدة التنموية الغربية هذه التسمية على تلك الأحياء، لأن الفقراء النازحين من الريف بنوا بيوتا دون موافقة الدولة، وأن معظم المباني والأحياء العشوائية ظهرت بدون أي تخطيط وبطريقة عشوائية لا تراعي أي قواعد فنية أو معمارية أو صحية أو بيئية، وتعيش في هذه المناطق غالبية سكان القاهرة الذين يعانون من انخفاض الدخل وكذا يعانون من البطالة، وتسعى كل من المؤسسات والجمعيات التنموية الأهلية، والحكومية على السواء لتحسين الأوضاع السكنية في الأحياء الفقيرة والعشوائية.

(الفقر والموت)

وعليه فمن الخطورة على الشكل الحضاري للعاصمة العريقة أن توجد فئات من سكان القاهرة أو الذين صاروا من سكانها يعانون من عدم وجود مساكن لهم فيلجأون إلى الأحواش والعشش والخيم والعربات الثابتة بل وصل الأمر للبعض منهم للسكن في المقابر كي يعيشوا

فيها مع الأموات، فآلاف العائلات من فقراء المصريين يعيشون في مدافن قديمة حوَّلُوها إلى مساكن يأوون إليها بدلاً من الشوارع، وهذا ما يعرف بسُكنى المقابر، تلك الظاهرة التي تنفرد بها مصر عن غيرها من مدن العالم وهي عادة موجودة منذ القرن التاسع عشر الميلادي، وقد أصدر أول إحصاء لعدد سكان المقابر بأنه بلغ قرابة ٣٥ ألف نسمة عام ١٨٩٨م، وقد بلغ سكان المقابر في تعداد ١٩٤٧ نحو ٦٩ ألفاً، وفي عام ١٩٦٦ بلغ حوالي ٩٧ ألفاً، ومنذ ذلك الوقت وأعداد سكان المقابر تشهد تزايداً مستمراً مع تزايد أزمة السكن.

ثم تضاعف عدد سكان المقابر عند تهجير معظم سكان مدن القناة في الفترة ما بين عامي ١٩٦٧م و ١٩٧٣م إلى مدينة القاهرة وضواحيها وجهات أخرى من محافظات مصر وسكن في القاهرة وحدها ما يقرب من مليون ونصف المليون نسمة، مما زاد من ازدحام المدينة الذي كان له أثره البالغ في الضغط على كافة المرافق ونواحي الحياة وتعقد أزمة الإسكان، وترتب على ذلك لجوء الكثير إلى سُكنى المقابر، وقد أشار آخر تقرير أصدره الجهاز المركزي المصري للتعبئة العامة والإحصاء لسنة ٢٠٠٠م إلى أن سكان المقابر تضاعفوا عشرات المرات بسبب تفاقم أزمة الإسكان ووصل عددهم في آخر إحصاء إلى ٢ مليون نسمة، ووفق آخر إحصائية للجهاز المركزي للتعبئة والإحصاء، فقد وصل عدد سكان المقابر إلى ٥ ملايين مواطن حيّ يعيشون مع أسرهم بين الأموات، داخل ٢٥ محافظة مصرية، وفي القاهرة الكبرى بلغ عدد السكان في ضيافة الموتى حوالي مليون وستمائة ألف مواطن، وحسب التقديرات غير الرسمية بلغ تعداد ساكني المقابر من ٢ مليون إلى ٣ مليون نسمة، وأن هذا العدد الكبير الذي يفوق تعداد سكان بعض الدول العربية والأوروبية، يمثل شريحة منعزلة عن المجتمع وإشكالية اجتماعية واقتصادية ونفسية لها سلبياتها الكثيرة والمعقدة.

وأظهرت الإحصاءات أن أزمة الإسكان ترجع إلى عوامل عديدة منها ارتفاع أثمان المسكن بسبب ارتفاع أسعار مواد البناء وتكدس العشوائيات والهجرة الداخلية من الريف أومن المدن الصغيرة إلى القاهرة، مما أدى إلى ما يعرف بالتحضر الزائف بمعنى زيادة درجة التريف، وترتب على ذلك ازدحام المدينة ازدحاماً شديداً، لذا لجأ الكثير من السكان القادمين إلى بناء غرف إضافية من الطوب اللبن التي تعلو أسطح الشرفات أو إضافة جزء من مدخل البيت لتوسعة المسطح السكني، أو بناء غرف إضافية في بعض المناطق السكنية والتي باتت تئن من العشوائية المقصودة، وكذا لجوء بعض سكان القاهرة الذين قدموا من بعض المحافظات إلى سكن المقابر فأصبح الأحياء يزاحمون الأموات.

(حياة مخيفة وأطفال بلا طفولة - بلا مستقبل)

وليس الفقراء ومحدودو الدخل فقط من تواجههم مشكلة السكن، فالفئات المتوسطة أيضاً تعاني من ارتفاع الأسعار المستمر، وبجانب سكن المقابر، هناك في أحياء القاهرة القديمة أسطح المنازل التي تتكدس بالأسر المصرية، وكل أسرة تقطن غرفة واحدة، ولعل التوسع في العمران شرقاً وجنوباً يقتصر في الغالب على الأغنياء، ولذا ينحصر السكان الفقراء ومحدودو الدخل في أحياء القاهرة القديمة بأقصى الشمال الشرقي ووسط المدينة، ونستطيع أن نجزم بأن سكان المقابر ظاهرة تنفرد بها مدينة القاهرة على المستوى العالمي ويرجع ذلك إلى عوامل عديدة أهمها أزمة الإسكان وارتفاع أثمانها، بسبب ارتفاع أسعار مواد البناء في وقتنا الراهن وتكدس العشوائيات والبطالة والهجرة الداخلية من الريف طمعاً في فرصة عمل، فما تمر به القاهرة الآن يُعد أزمة خطيرة من «تلوث الهواء وتلوث المياه والتربة الزراعية والازدحام الشديد والأمراض النفسية، والسلبية والتخبط والعشوائية والهمجية»، ومن يدقق الآن يرى أن البعض من الذين يقطنون ويستقرون في المقابر هم الذين يتطلعون للثراء، فمنهم من ورث عن أجداده وآبائه مزاولة مهنة دفن الموتى التي أصبحت مصدر ثراء في مصر، بل يتعدى الأمر عن ذلك بأنهم يبيعون بعض المدافن وأراضي من المقابر لبناء مقابر جديدة، بل يقومون أيضاً ببيع الموتى، وأنهم يعيشون حياة طبيعية بالنسبة لهم، وأصبح من الطبيعي لمن يزور المقابر الشهيرة بالقاهرة مثل مدافن الغفير وباب النصر والإمام الليثي والبساتين والمجاورين ومدينة نصر ومصر الجديدة أن يشاهد أسر بأكملها تعيش وسط المقابر وتتخذ من شواهد القبور مناضد لوضع جهاز التلفزيون، أو تعليق حبال لنشر الغسيل بين شواهد القبور،

بل وقد يفرغ أهل أحد الأموات من دفن عزيز لديهم في الصباح، ليقام في ذات المكان مساء حفل زواج لأحد سكان مناطق المقابر.

وتخلف الهياكل الاقتصادية والإنتاجية في الريف قد ساعد على تدفق الهجرات إلى مدينة القاهرة، أدى إلى ظهور نوع جديد من المساكن، وهو المساكن العشوائية وسكن المقابر، التي أدت فيما بعد ارتفاع نسبة الجريمة والاعتداءات والتي قام بها بعض سكان هذه الأحياء الفقيرة والعشوائية والتداخل والصدام الاجتماعي بين هؤلاء الذين يعيشون في هذه الأحياء مع سكان المدينة، فمن سمات سكان المقابر والأحواش هو ارتفاع درجة التزاحم في الحجرة الواحدة، وافتقارهم للمرافق الداخلية المتمثلة في دورة المياه المستقلة، أو المطبخ المستقل، وتؤدى هذه الوظائف في مكان المعيشة الذي يكتظ بعدد وفير من الأشخاص، وكذا تدني المستوى الاقتصادي والتعليمي وارتفاع معدلات الأمية، ولا زالت المشكلة قائمة، بل في ازدياد؛ وذلك بسبب ارتفاع عدد الوحدات السكنية المهددة بالسقوط والإزالة في مدينة القاهرة، وكذا العقارت المهددة بالانهيار في المستقبل القريب، فهي أيضاً من الأسباب التي تجعل بعض الناس يلجأون إلى سكن المقابر، ورغم سطوع الألفية الثالثة لا زالت مدينة القاهرة تواجه كمثيلتها من مدن مصر مشكلة الإسكان، وقلة الإسكان المُرضي الرخيص مما أجبر العديد من السكان الفقراء ومحدودي الدخل للعيش في أماكن المقابر أو التُّرَب منفصلين عن المجتمع، ومن الواضح أن سكان المقابر في القاهرة يتزايدون بسبب الهجرة الريفية وأزمته السكنية المعقدة وكذا بسبب البطالة التي تصل نسبتها نحو ٣٩٪.

ونتيجة الهجرات الداخلية العديدة خاصة إلى مدينة القاهرة؛ ازداد عدد الأفراد الذين يعيشون في المقابر، ومع الزحف العمراني الخطير لضواحي القاهرة أصبحت العاصمة وضواحيها تشكل نسبة كبيرة من سكان مصر وهذا ما يعرف «بالقاهرة الكبرى»[1]، التي تعتبر أكبر تجمع سكاني حضري على مستوى العالم العربي والشرق الأوسط وقارة أفريقيا، وتحتل المركز السابع على مستوى العالم في الازدحام، ويبلغ عدد سكانها

(١) القاهرة الكبرى هو ما يطلق على كيان إداري في منطقة واحدة وتشمل مدن القاهرة والجيزة والقليوبية وأصبحت تشمل خمس مدن وهي القاهرة والجيزة والقليوبية وحلوان و٦ أكتوبر، وجميع المناطق المذكورة هي امتداد عمراني طبيعي للعاصمة القاهرة، لذا تعتبر القاهرة الكبرى كتلة واحدة أو محافظة واحدة، فلديها شبكة واحدة من المواصلات ومنها مترو الأنفاق.

أكثر من ١٤ مليون نسمة وهو ما يعادل ٢٠٪ من تعداد سكان مصر وكذا ما يعادل مجموع سكان الوجه القبلي، ويتوقع أن يصل سكانها إلى ٢١ مليون نسمة سنة ٢٠٢٢م، وبالتالي أدى ذلك إلى تفاقم مشكلة الازدحام وقلة المساكن التي تستوعب سكان هذه المنطقة، هذا وقد أقرت الوثيقة الصادرة عن المجلس القومي للسكان وضع استراتيجية لإعادة توزيع السكان في مصر، تهدف إلى إحداث توازن نسبي بين توزيع السكان في الوادي والدلتا من جهة، وفي الصحاري من جهة أخرى.

ويشير تقرير التنمية البشرية في مصر بأن منظمات المجتمع المدني سيكون لها دور رئيسي بشكل متزايد في محاربة الفقر والبطالة، وتوفير فرص العمل ووصول أفضل للخدمات الصحية للفئات الأكثر احتياجاً، وتحسين جودة التعليم المجاني، ومعالجة مجموعة من القضايا الأخرى التي تؤثر بشكل مباشر على معيشة المواطنين والمجتمع، وخاصة المجتمعات المهمشة، مثل العشوائيات وسكان المقابر وتحقيق مبادئ العدالة الاجتماعية والإنصاف بين أفراد المجتمع الواحد.

وعليه فمدينة القاهرة تعاني من السلوكيات الخاطئة والصدام الحضاري بين سكانها الأصليين الذين أخذوا في الانقراض وبين المهاجرين إليها، صدام بين التحضر والتحضر الزائف وكل ذلك يؤثر تأثيراً كبيراً في صحة المواطن المصري وكذا في السياحة المصرية، والأخطر الذي يشوه جمال القاهرة ويؤثر عليها تأثيراً سلبياً هو سُكنى المقابر.

أذكر لقاء في إحدى مناطق المقابر جمعني مع أحد الأحياء الأموات الذي حل ضيفاً على الأموات ساكني القبور، في البداية سألته عن اسمه فقال: أنا اسمي ياسر سمير عبد العزيز .....

وكم عمرك... رد قائلاً: حاجة وعشرين سنة، معنى ذلك ليس لديك بطاقة شخصية... قال: لا البطاقة في القسم، لماذا في القسم؟ قال بسبب شخص مؤذي وأدَّعَى عليَّ بتهمة أنا بريء منها... ما هي التهمة؟ يجيب لم أفعل شيئًا.....

الشخص هذا عمل لي محضر مزوَّر اتهمني فيه بأنني ببيع مخدرات وبسرق... والحمد لله وكيل النيابة أعطاني براءة لأنني مظلوم ..... يستطرد قائلاً الغلابة هم الذين يندسون تحت الأقدام ..... ما بالك لو كانوا أكثر من الغلابة غلباً، وهو نفس الشخص استولى على شقة أختي اللي بتربي ثلاث بنات يتامى، ومن يومها أختي اختفت هي وبناتها الثلاث.

سألته هل أنت ولدت في منطقة المقابر، بمعنى في حوش من أحواش القبور؟ قال: لا... أنا ولدت في منشية ناصر ولكني تركت السكن بسبب ظلم أبويا... كان بيصرف فلوسه على النسوان .... وطلق أمي أكتر من عشرين مرة، وعايش معها بالعافية رغم مرضها، وعندما وقفت أنا وإخوتي له لكي لا يضرب أمنا المريضة طردنا في الشارع، ثم أستأجرت غرفة في منشية ناصر رخيصة جداً وأخذت أمي تعيش معي بعيداً عن شر أبي، إلا أنه جاء إلينا وأقام معنا، فكان عليَّ أن أترك الغرفة لهم... ورغم ذلك لم يستطع دفع إيجار الغرفة مما اضطرهم لترك السكن.... أنا وإخوتي لم نعرف معنى الأبوة وعطف الأم... لم نشعر في يوم من الأيام بالحياة وأنا قعدت في المدافن... لا توجد مياه أو كهرباء وممكن نأكل يوم وآخر لا... وملابسي كما ترى... الأموات اللي إحنا عايشين معهم مرتاحين جداً عنا... وببيع بخور للناس علشان ما مدش إيدي لأحد... كأنه طفلاً ليس شاباً... فلم يدرك طفولته حتى فترة شبابه التي يعيشها كأنها ساكنة لا حراك كالأصنام.

(شاب محل سكنه المقابر)

وخلاصة ما سبق نستعرض بعضاً من الآثار السلبية المترتبة على سُكنى المقابر وهي كما يلي:

- عدم كفاية المرافق من مياه الشرب والكهرباء وشبكات الصرف الصحي.
- انعدام الخدمات من الطرق والمواصلات والمدارس والمستشفيات.
- الصدام الحضري والاجتماعي بين سكان الحضر وبين المهاجرين من الريف إلى المدن.

– تشويه جمال مدينة القاهرة وآثاره السلبية على السياحة المصرية.
– سوء الأوضاع البيئية وانتشار التلوث والأمراض وافتقاد المساحات الخضراء.
– زيادة معدل البطالة في المجتمع المصري وانتشار الجريمة.انعزال تلك الشريحة عن المجتمع المصري.
– سوء التغذية وعدم وجود الرعاية الصحية.
– زيادة نسبة الأمية في مصر
– عدم الانتماء الحضاري.

وعليه فإن توفير المسكن الملائم يمثل أحد الاحتياجات الضرورية للإنسان مع المأكل والملبس، الحاجات الرئيسية لحياة الإنسان، ومن هنا تبرز أهمية الالتزام بتوفير السكن والتغلب علي كافة التحديات التي تمثل عائقاً في سبيل ذلك وتتلخص في «زيادة معدل النمو السكاني وارتفاع أسعار الأراضي والمرافق، ونقص التمويل اللازم للبناء»، ومن هنا فقد وضعت الدولة سياسات عدة تؤدي للتغلب على التحديات والانطلاق نحو توفير المسكن الملائم لكل مواطن، وقد تمثلت هذه السياسات والإجراءات في الآتي:

التزام الدولة بالاستمرار فى تقديم القروض الميسرة لمحدودي الدخل.

التوجه إلى الصحراء وإنشاء المدن الجديدة لزيادة الرقعة المعمورة.

توفير الأراضي وإمدادها بالمرافق والخدمات بهدف إنشاء وحدات سكنية لمحدودي الدخل والشباب .

تطوير المناطق العشوائية، والحفاظ على الثروة العقارية الحالية.

وعليه فهناك دور كبير من القطاعات الحكومية والرأسمالية للقضاء على تلك الظاهرة ولن يتحقق ذلك إلا إذا كانت هناك جهود كبيرة وأعمال كثيرة ومنها ما يلي:

١– توفير مساكن بديلة لسكان القبور ولسكان العشوائيات.
٢– وضع قوانين تعاقب من يسكنون المقابر أو يجعلون المقابر سكناً لهم.
٣– توفير فرص عمل للحد من البطالة والجريمة.
٤– توعية الناس بخطورة سكن المقابر التي تسبب في انتشار الجريمة والاعتداءات ممَّا يُشَوِّه صورة مصر أمام العالم.
٥– تفعيل دور الإعلام لنشر الوعي الوطني لدى الناس بأهمية الشكل الحضاري لمصر وعدم تشويهها، والعودة لجمالها.

٦- توعية الناس بعدم المبيت في القبور أو جعلها سكناً أو مأوى واحترام الأموات.
٧- بناء مدن جديدة خارج نطاق وادي النيل.
٨- الاهتمام بالمدن قليلة السكان وإقامة مشروعات وتوفير الخدمات لجذب الشباب إليها مثل سيناء والبحر الأحمر والوادي الجديد.
٩- تحسين المساكن من خلال بناء مساكن جديدة وإزالة الأحياء الفقيرة والعشوائية.
١٠- عمل ندوات لسكان القبور ومشاركتهم في اتخاذ القرارات.
١١- تحقيق العدل الاجتماعي والاقتصادي لكل مواطن.
١٢- عدم تهميش تلك الشريحة (سكان المقابر) من المجتمع.
١٣- إعادة تخطيط القاهرة ونقل المصانع والورش الصناعية إلى المدن الصناعية.
١٤- تشجيع الهجرة العائدة من خلال إقامة مشروعات جاذبة في المناطق الريفية.
١٥- تنفيذ القوانين الخاصة بحماية الأراضي من التعديات العشوائية الجديدة.
١٦- إنشاء مشاريع إسكان لذوي الدخل المحدود وتشجيع المشاريع الإسكانية التعاونية وتطويرها.

بعض الحلول المقترحة لمواجهة هذه المشكلة:

- مشاركة المواطنين مشاركة فعالة وإيجابية في الأمور المتعلقة بحياتهم وصحتهم.
- النهوض بخدمات الصحة والبيئة وظروفها في المدينة والمناطق الريفية.
- تنمية الريف وتوفير كافة المرافق والخدمات.
- إقامة مشروعات صناعية ذات تكنولوجيا متوسطة.
- توفير المستوى الأمثل من الخدمات الصحية العامة لجميع السكان.
- تعزيز دور المرأة ومراعاة احتياجات الأطفال في الريف.
- تشجيع الجمعيات الأهلية لمكافحة الأمية.
- إنشاء المدارس التعليمية العملية التي تقوم دراستها على التكنولوجيا الحديثة في المناطق الريفية.
- القضاء على المناطق العشوائية إما بالتطوير أو الإزالة.
- إصدار قانون يمنع ويجرم السكن في المقابر.

وخلاصة القول فإن هذا الأرث المظلم من سكان المقابر الذين يعملون كَتُرَبِيَّة فهؤلاء وُلدوا وعاشوا وتربوا في المقابر وورثوا هذا العمل، كما أنهم لا يستطيعون أن يعيشوا خارج

نطاق المقابر، ونستطيع أن نصف هؤلاء بالأحياء الأموات، وبالرغم من ذلك فهم يتمتعون ويحيون ويعيشون نمط حياة خاص بهم ويفرحون ويحزنون ويتزوجون وينجبون فلهم عالمهم الخاص، وبجانب أعمالهم كَتُرَابيَّة يعملون أيضاً في أعمال البناء أي بناء قبور جديدة أو تجديد مقابر، لذا فمنهم من يتمتع بدخل اقتصادي وفير، وآخرون فقراء لا دخل لهم، والبعض يزاول مهن أخرى مثل أعمال التجارة والوظائف المختلفة، ومنهم الشباب الذين ورثوا هذه المهنة من خريجي الجامعات ولكنهم يتمسكون بعمل أجدادهم وآبائهم فهو العمل الذي يوفر لهم المأوى والمأكل، ولا زال الشكل الحضاري للعاصمة في ارتياب، ولا زالت المشكلة قائمة حتى يومنا هذا، وتتطلب جهوداً مضنية حتى نتمكن من الوصول لوضع حلول لها.

والجدير بالذكر منذ تولي الرئيس عبد الفتاح السيسي حكم البلاد شرع في تنفيذ كل ما ذكر من حلول، بعطائه اللا محدود، وجهوده التي يبذلها وترجمة هذه الجهود على أرض الواقع، (وعلى سبيل المثال أهداف الدولة في حل مشكلة المرور والأزمات المرورية، والقضاء على العشوائيات، وتحقيق حياة كريمة في الريف المصري، والأحياء العشوائية)، جهود الرجل الوطني الذي يغير على بلاده ويريدها أجمل وأحلى البلاد، ولا زالت تلك الجهود مستمرة.

وتعمل الدولة المصرية، على رفع مستوى معيشة قاطني العشوائيات من خلال التطوير، اجتماعياً وبيئياً واقتصادياً، والقضاء على الفوضى في المناطق غير الآمنة، وكذا تحولها من القبح إلى الجمال، فقد استطاعت الدولة أن تطور ٨٠٪ من المناطق الخطرة فى مختلف المحافظات، وتأمل الحكومة أن تستطيع القضاء على العشوائيات نهائياً بحلول عام ٢٠٣٠م.

السكاكيني
بين الماضي والحاضر

من يمتلك مفاتيح القصر؟

(قيمة العمارة الأثرية لا تقدر مادياً لأنها جزء من تاريخ الشعوب)

هناك العديد من القصور الفخمة التي تتميز بالقدم والفنون في مصر، قصور تنم عن العراقة والحضارة الحديثة، ورغم أنها مبان صامتة إلا إنها تكاد أن تتغنى من روعتها وجمالها، كأنها ترقص وتروي قصتها فتبهر كل من يراها، ومن هذه القصور، قصر السكاكيني، الذي أطلق اسمه على الحي الكائن به، وهو الذي يُعد تحفة معمارية غاية في الروعة والجمال من الطراز المعماري الفريد الذي يضم مختلف فنون العمارة بمدارسها المتنوعة التي تسبح في عالمنا، وتتنوع فيها العمارة الإسلامية، والفرعونية بل والصينية أيضا، إلى جانب فنون النهضة الأوروبية، [illegible] متر مربع، [illegible]

يُعد القصر نموذجاً مجسماً للفن المعروف «الروكوكو» (فن ينتمي إلى الزخرفة في العمارة والديكور الداخلي والخارجي وكذا الأثاث والتصوير والنحت، هو فن منبثق من المحارة غير المنتظمة، وقد كانت بداية ظهور هذا الفن في فرنسا إبان القرن الثامن عشر الميلادي، ويرجع إلى الأصول الكلاسيكية وهو يعتبر من الأساليب الزخرفية التي تعالج الأنماط الساكنة ليكسبها الحركة والحيوية وهذا الفن تم استقاؤه من فن الزخرفة العربي التقليدي «الأرابيسك»)، والقصر تحفة فنية رائعة فمن الداخل توجد الزخارف

الهندسية والنباتية ذات ألوان زاهية وخاصة أعمال التدهيب بالورق الفرنساوي... أما من الخارج التماثيل والمنحوتات البارزة والغائرة والزهريات والسلالم والبرامق والجلسات والكوبستات وكلها من الرخام الكارارا والبيانكو الأبيض الإيطالي.

ليست مجرد تماثيل، ولكن عندما تشاهدها تُشعرك وكأنها ترقص وتغني:

يتكون قصر السكاكيني من ثلاثة طوابق وبدرون، وفي الجهة العليا منه يوجد برج مكون من طابقين، ويجمع بين عدة طرز معمارية أشهرها الرومانسكي والذي يتضح في الزجاج، وداخل القصر عناصر زخرفية تاريخية مهمة تنتمي لطرز الركوكو والباروك، بالإضافة إلى عناصر زخرفية إسلامية متمثلة في المحاريب وعنصر المفروكة في قاعة الاستقبال على السياج الخشبي، والقصر تعلوه قباب مخروطية الشكل، ويضم ٥٠ غرفة، ويوجد حرفي H و S منتشرين في جوانب القصر وهما اختصار لاسم صاحبه، وكذا في واجهة القصر، الذي يحيط به سور حديدي وحديقة صغيرة نسبياً، كما انتشرت التماثيل التي بلغت ما يقرب من ٣٠٠ تمثال، وعندما تنظر إليها كأنك تحاكيها، وتتحدث معها من شدة إتقانها وروعتها وجمالها، وكأنها تلهو خارج القصر وترقص وتغني ليس لأهل القصر فحسب بل لكل من يشاهده.

ومن أجمل مقتنيات القصر لوحة زيتية بالطابق الأول من القصر في سقف حجرة الطعام، ويحيط بها إطار ثماني الشكل ورسمت باللون الأزرق الفاتح بالألوان الزيتية لسيدة عارية، وبجوارها سيدة أخرى تحمل باقة ورود، واللوحة الثانية سيدة عارية بجوارها طفل صغير وحولها رسوم لملائكة مجنحة، وتنتشر بالقصر أيضا لوحات المناظر الإنسانية والحيوانية، ويوجد بالداخل مصعد عبارة عن تحفة فنية غاية في الجمال، كما أن النافورة الخاصة بالقصر من الرخام وهي دورين بها زخارف لرؤوس السباع، وبجانبها تمثالان يجسدان أسداً جالساً مصنوعاً من الرخام ويخرج الماء من فمه، كما يوجد تمثال نصفي رخامي محمول على قاعدة رخامية على واجهة القصر وهو لصاحبه حبيب باشا.

وقد كانت المنطقة التي يوجد بها القصر قبل بنائه عبارة عن بركة مياه، على الجانب الشرقي للخليج المصري، تعرف ببركة «قراجا التركماني» (عرفت ببركة قراجا وكان يجاورها حي الحسينية الحالي، وقد عرفت بهذا الاسم نسبة للأمير «زين الدين قراجا

التركماني»، أحد أمراء مصر، الذي أنعم عليه السلطان الناصر محمد بن قلاوون بها سنة ٧١٧هـ/ ١٣١٨م)، قبل أن تؤول ملكيتها وما حولها إلى حبيب باشا سكاكيني، عن طريق مزاد رسا عليه[1]، وما أن استقرت هذه البركة وما جاورها في حوزة السكاكيني باشا، حتى شرع في ردمها وبناء قصره الرائع ليصبح نقطة مركزية ومن حوله ثمان شوارع جميعها تؤدي إليه وبذلك أصبح موقع القصر موقعاً متميزاً، فهو يقع في منتصف الحي الموجود حالياً والذي يعرف بميدان السكاكيني، ومن أشهر معالمه حينذاك، محل «البستاني» المتخصص في الحلويات والآيس كريم، وسينما «بارك» الصيفية التي كانت تعرض ثلاثة أفلام أسبوعياً.

(قصر السكاكيني)

مجمع الأديان:

وبناء هذا القصر كان له أثر بالغ في التوسع العمراني في هذه المنطقة شمالاً وشرقاً، طيلة القرنين التاسع عشر والعشرين، وكان حي السكاكيني في بدايات القرن الماضي أقرب ما يكون لمجمع الأديان، حيث كان يضم اليهودي والمسيحي إلى جانب المسلم، وكان يوجد بالحي أكثر من مسجد، أشهرها مسجد الظاهر بيبرس، الذي يتوسط الميدان

(١) المصادر من محكمة مصر المختلطة في العاشر من يونيو عام ١٨٨٠م، وفق الحجة التي تثبت ملكية «حبيب» للأرض عن طريق المزاد.

المعروف باسمه، وهو أعرق مساجد القاهرة الذي استخدمه الإنجليز أثناء الاحتلال مذبحاً، كما كانت توجد به كنيسة وثلاثة معابد يهودية تهدم واحد، وما زال هناك اثنان قائمان حتى الآن، يوجد أحدهما في شارع ابن خلدون واسمه معبد «كرايم» الذي تم بناؤه عام ١٩٢٥م، وافتتح عام ١٩٣٢م، ويحتاج إلى ترميم لذا فهو مغلق تحت الحراسة، والآن..... ماذا الآن؟ إذا كان هذا المعبد قائماً متهالكاً أيضاً التراب هو ساكنه الوحيد، ويتبع المجلس الأعلى للآثار، والثاني أيضاً مغلق ويجثم قبل نهاية شارع «قنطرة غمرة» واسمه «حنان»، الذي تم بناؤه عام ١٩٠٠م.

وفي نهاية شارع قنطرة غمرة يوجد مبنى أثري يعلوه صليب، كنيسة طور سيناء أو «دير طور سيناء» للروم الأرثوذوكس، على واجهته التي تطل على ميدان الظاهر، لوحة توضح حجر الأساس الذي كان عام ١٨٩٣م، وافتتح عام ١٨٩٩م في عهد الخديوي «عباس حلمي الثاني»، (يوجد كتابة أعلى االبوابة باللغتين العربية واليونانية توضح تاريخ التأسيس) وهو يتبع دير «سانت كاترين» في جنوب سيناء، وهو يخص طائفة الروم الأرثوذكس، ويقتصر على دخوله على الجاليات الأجنبية، ويقيم بالمقر عدد قليل من الرهبان اليونانيين، كل شيء هنا يذكرك بدير سانت كاترين، والشارع المجاور لمقر الكنيسة اسمه طور سيناء، والميدان الصغير خلف الكنيسة اسمه طور سيناء أيضا، أما سانت كاترين فهي قديسة مصرية ولدت بالإسكندرية في القرن الثالث الميلادي، واستشهدت عام ٣٠٧م في عهد القيصر الروماني ماكسيميانوس، بعد أن تعرضت لشتى صنوف العذاب، ومنها التعذيب على العجلة التي تكسر العظام، والتي تعرف باسمها حتى اليوم: عجلة كاترين، وفي النهاية قام الإمبراطور بإعدامها.

مشاهير حي السكاكيني:

حي السكاكيني من الأحياء الراقية الذي قطنه المشاهير أمثال عميد الأدب العربي طه حسين وزوجته سوزان، وياسر عرفات الذي ولد أو قطن شارع طورسينا فترة دراسته في جامعة القاهرة، ومحمد عبد الوهاب الذي قطن لفترة بشارع سواريس بحي السكاكيني، والفنانة الكبيرة ماجدة الصباحي، وسعاد حسني، وزكي مراد وابنته ليلى مراد الفنانة الشهيرة، وعبد الفتاح القصري، والممثل محمود التوني، وداود حسني، ويقال أيضاً موشى ديان وغيرهم من المشاهير، وقد كان شارع السكاكيني يسير فيه الترام (كان يحمل

رقم ١٧) كان براحاً رغم وجود الترام في اتجاهين وكان نهايته عند نهاية هذا الشارع العريق، وكنا نحن أبناء هذا الحي نلعب الكرة في تلك الآونة في هذا الشارع فكما ذكرنا كان براحاً – فسيحاً – هادئاً رغم وجود الترام الذي كان يمتد من نهاية شارع السكاكيني إلى بركة الرطل مروراً بشارع الفجالة، واللاظوغلي والعتبة، كان ذلك أيام الزمن الجميل حينما كانت العاصمة بالأبيض والأسود دون رتوش، نحن نعيش أو لا نعيش في هذا الزمن الحالي المليء بالألوان المبهرجة الزائفة، التي تجمع بين السحابة السوداء وعوادم السيارات ومخرجات الورش والمصانع، كأنه تكونت مجموعة غير اعتيادية من أنواع مختلفة للتلوث، فمنها تلوث الهواء، والتلوث البصري، والتلوث السمعي، وفقدان المشاعر والأحاسيس تجاه الأشياء الجميلة التي انخرطت في دوامة التوقيعات والروتين والبيروقراطية وأهم من ذلك هو فقدان القيمة.

(الترام في قلب السكاكيني)

صاحب القصر حبيب باشا السكاكيني:

هـ مـلـ هـ» »لـ لـ لـ فـ مـ »لـ لـ »لـسـ يـ عـ لـ لـ سـ سـ يـ مـسـ حـ
سـ بـ لـ مـ هـ حـ جـ جـ» لـ نـ قـ لـ بـ عـ تـ بـ لـسـ كـ نـ» شـ تـ
»لـ فـ مـجـ لـ عـ »لـسـ كـ كـ هـ »بـ »لـ حـ لـ لـ» لـ تـ هـ نـ هـ
»لـبـ لـ كـ نـ »لـ تـ »لـ تـ لـ بـ تـ مـ »لـ حـ »لـ تـ لـ ثـ نـ

وضع قطط جائعة في الأماكن التي تنتشر فيها الجرذان في منطقة مسار قناة السويس، فلاقى اقتراحه قبولا شديداً وتم شراء واصطياد أعداد غفيرة من القطط جُمعت وتم تجويعها، لذا نجح «حبيب» في إرسال عدة طرود من القطط الجائعة على ظهور الجمال، ثم أطلقوها على أماكن تجمع الجرذان فانتشرت تمحو أسرابها و تلتهمها ولم تمض أيام حتى اختفت تماماً وتم الانتهاء من أمرها.

استكمال بناء دار الأوبرا المصرية:

[illegible]

حبيب السكاكيني وردم بركة الشيخ قمر:

كانت بالقاهرة وقتها عدة برك مثل الأزبكية والفيل والرطلي والناصرية والفوالة وقرموط والشُقاف وقمر، ورغم منافع تلك البرك في معظم أيام السنة، إلا عند انحسار المياه عنها بعد الفيضان تتحول إلى مياه راكدة مكونة مستنقعات ذات رائحة كريهة، لذا قام «حبيب» بردم بركة الشيخ قمر بموجب فرمان السلطان العثماني «عبد الحميد الثاني»، هذا وقد حمل الشارع الواصل بين ميدان الظاهر بيبرس إلى الشارع المؤدي إلى غمرة اسم سكاكيني الذي يتوسطه ميدان السكاكيني.

بطريرك الروم الكاثوليك يمنح نيشان بيوس التاسع لحبيب باشا سكاكيني:

حبيب السكاكيني أحد أشهر الشوام الذين عاشوا في مصر في أواخر القرن التاسع عشر كما ذكرنا، وله العديد من الإسهامات في الإنشاءات المصرية، حيث كانت تربطه علاقة قوية بالخديو إسماعيل وأيضا بابا الفاتيكان، وكذا تمتعه برضا الباب العالي، وفي سنة ١٨٦٥م اشترى «حبيب سكاكيني» أرض التل[1] التي تبدأ من شارع البرج، حتى مدخل شارع الفجالة من جهة المحطة، وتعهد للحكومة بردم الجهة الواقعة في أول الشرابية، حيث الآن مخازن سكة الحديد، فصار ينقل الأتربة من التل، وكان لا يخلو مقطف من عقرب أو أكثر، ويلقي بها في الشرابية حتى أزال التل، وجعله مساوياً للأرض.

هدم زاوية الشيخ «سيف» الواقعة في وسط الشارع، وعلى أثر ذلك أصدر الخديوي إسماعيل قراراً بجعل عرض شارع الفجالة عشرين متراً.

عريضة السكاكيني للخديو إسماعيل واستدعاؤه إلى سراي قصر النيل:

لما أتم هذه المهمة الشاقة، رأت الحكومة إدخال شارع الفجالة في التنظيم، فقررت أن يكون عرض الشارع ثمانية أمتار، ولكن «حبيب» أدرك بخبرته أن مستقبل الفجالة سيكون زاهراً، لأنها نقطة الاتصال بين البلد والعباسية، وأنه إذا كان عرض الشارع

(١) في النصف الأول من القرن التاسع عشر لم يكن المتجه إلى شارع الفجالة من جهة المحطة يرى غير منزل واحد هو منزل «دميان» بك، وبعد مسافة طويلة جهة الشمال ترى منزل «تادرس أفندي عريان»، وحول هذين المنزلين من كل جهة المزارع، والمستنقعات، والغيطان يفصل بينها وبين باب البحر السور الفرنساوي، وكان أهالي باب البحر والحارات يقذفون فضلاتهم وأقذارهم خلف السور من الجهة الشمالية — حيث يوجد الآن شارع الفجالة — فتكون هناك تل اسمه يعرف بتل العقارب وكان المزارعون يأخذون منه السماد لتسميد أراضيهم، وخاصة غيطان الفجل المجاورة للتل، وكان في القاهرة تل آخر بهذا الاسم واقع فيما بين شارعي خيرت والسيدة زينب، حيث توجد الآن المدرسة السنية، ولما جاء الفرنسيون إلى مصر ١٧٩٨م، قاموا بتشييد أبنية وكرانك وأبراجاً، وضعوا فيها عدة من آلات الحرب والعساكر المرابطين، وعلى هذا التل أعدم «سليمان الحلبي» قاتل «كليبر»، والثلاثة الذين ساعدوه على إتمام العملية، وهم: علي محمد الغزي، وعبد الله الغزي، وأحمد الوالي، أما طريقة التنفيذ، فقد جاءت في قراره، تحرق يد سليمان الحلبي اليمني قبل أن يجرى أي شيء، وبعده يتخوزق، ويبقى على الخازوق لحين تأكله الطير، ويكون ذلك أما شركاؤه ثم ينفذ فيهم حكم الإعدام وهو أن تقطع رءوسهم، وتوضع على نبابيت، وجسمهم يحرق بالنار.

ثمانية أمتار فقط، بل يجب أن يكون الشارع أكثر اتساعاً لأنه سوف يضيق على الناس، فكتب عريضة ضمنها رأيه الخاص في الموضوع، ووقف عند قنطرة الليمون منتظراً مرور موكب الخديوي إسماعيل، فلما اقترب منه الموكب رفع العريضة ولمحها الخديوي، فأمر بأحد ياوراته بأن يأخذ العريضة من رافعها.

وبعد فترة وجيزة استُدعي «حبيب» إلى سراي قصر النيل، حيث قابل سمو الخديوي وعرض عليه رأيه، فدعى مهندس التنظيم الفرنسي، فذكر أنه إذا جعل عرض الشارع عشرين متراً، فلابد من تخطيط وتنظيم الشارع:

وكان حبيب باشا أول من شيد عمارة في الشارع الخارجي، وهذه العمارة هي التي توجد فيها الآن بوستة الفجالة ودائرة السكاكيني سابقاً، وأقبل أعيان السوريين على الشراء من أرض السكاكيني، فكان أول من اشترى يوسف الأونياطي، وخليل الزهار، وحنا قدسي، وحنا موسى، وإخوان مايسترو، وتبعهم الأقباط، ومنهم آل الخياط، وسعد بك عبده، ورزق لوريا، ولما رأى «حبيب» نجاح مشروعه في تل العقارب اشترى القطعة المقابلة للقسم الغربي منه، وهي المحصورة بين شارع الفجالة وقسم الشرطة وشارع عباس وشارع سيف الدين المهراني، وكانت من أملاك الخاصة الخديوية، ثم نازعه فيها جماعة من المستحقين في وقف أهلي، وتمكن السكاكيني من شرائها، وشرع في تخطيطها وتنظيمها، لذا يرجع الفضل في إنشاء شارع الفجالة، وجعله في هذا الاتساع إلى السكاكيني باشا، وتوافق مع رغبة الخديوي إسماعيل في توسعة الشوارع ومنها «الفجالة»، فكان هناك فرق بين شارع الفجالة وشارع باب البحر، كما منع تحول خط الترام إلى شارع العباسية، وواصل العمران في الجهة الشمالية، وبلغت مساحة الأراضي التي مهدها، وقسمها للبناء نحو نصف مليون متر مربع.

وقد وصف «علي مبارك» الفجالة الحديثة في خططه، فقال: يبدأ من آخر شارع الزعفراني وأول شارع باب الشعرية، وينتهي عند قسم شرطة باب الحديد، الذي أُنشئ في زمن الخديوي إسماعيل وطوله ألف متر ومائة وخمسون متراً، وبه من جهة اليمين حارة الفجالة غير نافذة، وبها عدة بيوت، ثم سكة الإسماعيلية، ثم سكة لينان بك.

هذا وقد قسم «علي مبارك» شارع الفجالة إلى ثلاثة أقسام: الأول: سكة الفجالة،

وتبتدئ من شارع الزعفراني عند ترام الخليج، وفيها حارة الفجالة، وهذه السكة هي التي كانت معروفة من أيام الفرنسيين، وأطلق عليها «الفجالة» لتوصيلها إلى الأراضي التي تزرع فجلًا، ولا يزيد عرضها على ثمانية أمتار، وبيوتها قديمة متلاصقة أغلبها صغير، أما القسم الثاني: الفجالة القديمة، وتبتدئ من آخر سكة الفجالة القديمة في نقطة مقابلة لميدان بركة الرطلي، وتنتهي عند شارع البرج، وعرضها ١٢ متراً تقريبًا، ويمر بها ترام السكاكيني داخلاً إلى شارع حبيب شلبي، وخارجاً منه في طريقين، وبيوتها كبيرة يشغل بعضها حدائق، ولا تزال فيها عمارات متهدمة خربة مشوهة لمنظر الشارع، وفي هذا القسم مدرستا الأمريكان «للبنات»، والروم الكاثوليك «للصبيان»، وكنيستا الكلدان الكاثوليك، والأقباط الكاثوليك.

والقسم الثالث: الفجالة الجديدة، وبدايتها من مدخل شارع البُرج حتى باب الحديد، ويبلغ عرض الشارع ٢٠ متراً، وتمر فيه قطارات ترام العباسية والسكاكيني ومصر ويمتاز هذا القسم على سابقيه بفخامة مبانيه، واتساع الشوارع الجديدة المتفرعة منه، وازدحامه بالمقاهي الكبرى، والمكاتب، والصيدليات، ومكاتب المحامين، وعيادات الأطباء، وكان لأكثر بيوته حدائق غناء، التي حولها أصحابها إلى دكاكين للانتفاع من أجُورها، فبعد أن كان الشارع روضة غناء انقلب سوقاً مزدحماً بمختلف أنواع التجارة.

كتدرائية الروم الكاثوليك:

كان لطائفة الروم الكاثوليك بالقاهرة ثلاث كنائس: الأولى في درب الجنينة، وهي أقدم كنائسهم بُنيت في أيام محمد علي، والثانية في شارع جزيرة بدران بشبرا، والثالثة في قنطرة الدكة، وتعرف بالكنيسة الرضوانية، ثم أناف عدد أبناء الطائفة في العقد الأخير من القرن التاسع عشر، لذا فكروا في إنشاء كتدرائية جديدة، وكان الكونت حبيب سكاكيني في مستهل من فكروا في هذا المشروع، فقام بشراء قصر «لينان» باشا، وحديقة القصر هذا بالإضافة لأرض واسعة، وأهداهم إلى البطريكخانة لبناء الكتدرائية، كما دعم مشروع البناء مالياً، وقد قام خلاف بين أعيان الطائفة، لأن فريق منهم يدعم البناء في الفجالة، والآخر أبدى عدم الارتياح ورفض المكان، لذا عرض هذا الخلاف على البطريرك «غريغريوس يوسف»، فاتفق مع الفريق الأول في قبوله البناء في الفجالة، وخلف على كرسي البطريركية البطريرك «بطرس الرابع الجريجيري»، الذي وصل

القاهرة في سنة ١٨٩٩م، فثبَّت رأي سلفه غريغوريوس، لأن الأرض موجودة بالفعل، وإذا تم الانتقال في جهة أخرى فسوف تحتاج إلى مبالغ مالية كثيرة، وقد وضع أساس الكتدرائية وأتم بناء الجدران بالمال الذي اكتتبت به الطائفة، وفي مقدمتها «سكاكيني باشا»، وتم بناء الكنيسة سنة ١٩٠٦م.

صاحب السعادة الكونت حبيب سكاكيني:

انعمت الحضرة البابوية بنيشان بيوس التاسع من رتبة الكومندور الثالثة على حضرة المسيو يوسف دبانة قنصل جنرال البرازيل وبه من رتبة شفاليه الخامسة على كل من حضرات حبيب بك سكاكيني وحنين بك زنانيري وقد انعم الجناب السلطاني بالنيشان المجيدي الثاني على سعادتلو حبيب سكاكيني بك وبالرتبة الاولى من الصنف الثاني على سعادتلو حنين بك زنانيري وجميع هذه الرتب والنياشين السلطانية والبابوية قد منحت بناء على طلب غبطة العلامة بطريرك الروم الكاثوليك فنهنئ حضراتهم بها تهنئة خالصة

(تمثال حبيب باشا)

وفاة حبيب سكاكيني عام ١٩٢٣م:

لم تفد حبيب باشا سكاكيني عن الخدمة في عام ١٩٢٣م، وكان قد قام بتشييد مقبرة للروم الكاثوليك في مصر القديمة، وقد بنى حوله فناء عن الخدمة هي تقع في حي مار جرجس يحيط بتلك المقبرة شخص لم يعد في قيد الحياة.

(مدفن حبيب سكاكيني)

لم يكن هناك (بين باشا من المجتهدين الذين تقدموا في عام ١٩٢٣م سنة بعد الحرب العالمية الأولى في الشهر الذي جرى فيه تكليف الأنساب بقيادة جند الشرق حتى عاد الأنساب لاستلام مقاليد الحكم بعد أن تمكن من الحكم في مدينة القاهرة وتمكن من الحكم على بعض الذين كانوا في سجن الأشغال المؤقتة على ذمة القضية التي عرفت بقضية (اغتيال السردار) وكان من جملة من حكم عليهم في هذه القضية (المرحوم) حبيب سكاكيني في خمسة عشر عاماً

Ahram 14 June 1923

الكونت والكونتس هنري سكاكيني يدعون
الأهل والاصدقاء لحضور قداس وجناز التاسع
عن روح المرحوم الكونت حبيب سكاكيني
باشا الذي يحتفل به يوم الجمعة ١٥ يونيو سنة ٩٢٣
الساعة الثامنة ونصف صباحا بكتدرالية الروم
الكاثوليك بالفجالة
ويرجون الجميع ان يعتبروا هذا كدعوة
خصوصية لكل من حضراتهم

(دعوة)

[illegible] **بالتبرع بالمال [illegible] كأحد مقرات الاتحاد الاشتراكي – الذي أعاد بالبلاد إلى الوراء شأنه شأن كل الأنظمة الشيوعية، فكان نكبة على العباد –، ثم تم استخدام [illegible] واستخدم البدروم كعيادات طبية [illegible] وضمه إلى المجلس الأعلى للآثار، [illegible] وعانى القصر من سوء الاستعمال والإهمال الجسيم إلا أن القصر أغلق أمام الجمهور وأصبح مقر رئيسي لحي وسط التابع لوزارة الآثار، وهو حالياً معرض للانهيار والتصدع والتعدي على معالمه ومقتنياته وتماثيله بالتدمير أو السرقة....؟ وأخيراً نناشد جميع الجهات المعنية أن تنظر إليه بعين الرعاية لاعتباره أثراً شاهداً على عصره، فهو جانب مهم من تاريخ مصر الحضاري والسياسي والاقتصادي والاجتماعي، وكان من المفترض عناية الدولة به لأهميته وتميزه، لكن للأسف استمرت المعاناة والإهمال حتى وصل إلى حالة يرثى لها حتى وقتنا هذا.**

وأساتذتي في مدرسة غمرة الإعدادية، ونعود للأحزان كل الأحزان حينما تم هدم بناية المدرسة والتي كانت تحتوي على قصر السيد «عمر مكرم» الذي كان تحفة معمارية لا تقدر بثمن..... قصر يروي أحداث كثيرة منها السياسية والاقتصادية والاجتماعية..... ويالالأسف الشديد الذي جعل مسئول غير مسئول يتخذ قراراً متسرعاً دون دراسة، فكان أشبه بالعولمة الغربية الآن، أو إن جاز تحقيقاً لأهداف العولمة الغربية، كما يتفرع منه شارع الشيخ قمر الذي يبدأ من غمرة وينتهي عند ميدان الجيش، وكذا شارع ابن خلدون الذي يرجع إليه الفضل بتسميته باسم العالم «ابن خلدون» إلى المهندس القصصي «محمود طاهر لاشين»، ومن الشوارع المهمة في الحي، شارع طورسينا الذي يقال إنه ولد فيه المناضل والزعيم محمد عبد الرؤوف القدوة الحسيني «ياسر عرفات».

ويسرد الصديق حديثه قائلاً: لا أستطيع أن أنسى ذكرياتي سواء في المدرسة الابتدائية (مدرسة محمود فهمي المعماري، لازالت قائمة ببناء جديد) التي كان يقف على سورها في الفسحة عم «نور» الرجل النوبي الأسمر طيب القلب، فكان يقف على سور المدرسة لكي يبيع لنا السندوتشات ومشروب «استرا» المثلج وذلك في الستينيات والسبعينيات من القرن المنصرم، وكانت تلك المدرسة عبارة عن قصر قديم قد تم تأميمه زمن «جمال عبد الناصر» فتحول إلى مدرسة ابتدائية، المحزن أنه تم هدم هذا القصر بدلاً من الانتفاع به سواء في مجال المعمار والأبنية القديمة والتي يجب أن نحافظ عليها كتراث ثقافي – حضاري، (إن الإنسان لا يستطيع أن يحيا بالحاضر دون الماضي) أو في مجال السياحة، لأن هذا الحي العريق يحتوي على الأبنية والقصور الفخمة التي أزيلت الأمر الذي يجعل المرء يحيا في أحضان الشجر.

يكمل الصديق ويقول: وائتياب للذكريات الجميلة، التي تأخذ مني بعض الأوقات أعود بها إلى الوراء... إلى فترة الولودية والغُلواء.. وأعود إلى الحي الذي ولدت ونشأت فيه ألا وهو حي السكاكيني.. كنا نسكن في شارع جانبي وهو شارع سليمان أباظة وهذا الشارع هو ملتقى شارعي السكاكيني وشارع رمسيس، ويتفرع منه شارع عمر مكرم، (اشتهر باسم حارة الفحامين)، الذي شهد الدورات الرمضانية لكرة القدم، وعطفة سليمان أباظة وكذا حارة بهنس، أعود إلى الوراء وأفكر في هذا الزمن الذي هو بحق الزمن الجميل، وكثيراً ما أتذكر أبناء الحي الذين قضيت معهم أجمل سنوات حياتي، وقد كانت العلاقة بين الجميع قائمة على الحب والمودة، وكانوا إخوة لي سواء أكبر أو أصغر سناً أو من نفس العمر، كان الجميع يحبون بعضهم البعض ويخافون على بعض.

ويستطرد حديثه قائلاً: كان بيننا جار عزيز علينا جميعاً نعتبره بمثابة أخ وصديق، وكان يسبقني في العمر حوالي عامين أو ثلاثة أعوام، هو الذي كان يتولى المسابقات الرياضية في الإجازات الصيفية وكذا في شهر رمضان الكريم، فكنا نلعب ونتنافس في حب وود فيما بيننا في مسابقات عديدة، منها الشطرنج وكان يتزعم تلك اللعبة واحد من فلاسفة الحي – تستطيع أن تقول عليه أستاذ اللعبة، فكان من الصعب أن يُهزم عندما يتبارى معه أي أحد، ومن الألعاب الأخرى الطاولة التي كانت تستهوي معظم الشباب خاصة في المساء في شهر رمضان، وكان هناك من الأصدقاء من يهتم بلعبة كرة السلة وأهمهم أخوان عزيزان يوسف الذي هاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية وشقيقه هيثم رحمة الله عليه، وكان هناك واحد له هواية غريبة وهي جمع قطع وأسلاك النحاس والحقيقة كان يقوم ببيعها.

ولكن كانت أهم الهوايات والألعاب بالطبع كرة القدم وكانت مسئولية تنظيم المسابقات في يد أحد المهتمين، فكان هذا الإنسان في قمة النشاط، وكان يمنح جوائز للفرق الفائزة، وإذا سألت عن لقب يناسبه قلت الفليسوف، والطريف أنه محا اسمي من جميع الأنشطة الرياضية التي كانت تنظم في شهر رمضان الكريم، وذلك لأنني رفضت تسلم جوائز المركز الثاني في إحدى مسابقات كرة القدم، لأنني شعرت بالظلم من التحكيم وكان هو الذي أدار المباراة النهائية، وكان شقيقه من ضمن أعضاء الفريق المنافس، والحق فهو رفض تحكيم المباراة ولكن أنا بحكم كابتن الفريق رحبت به على إدارتها، ومن المؤكد أنه قام بالتحكيم في منتهى الحيادية، لكن أنا من النوع الذي لا يحب أن يُهزم، ثم تصالحنا كأن شيئاً لم يكن، كان هناك حب واحترام..... احترام الصغير للكبير..... عطف الكبير على الصغير، ويسرد الصديق ذكرياته ويقول: لا ننسى عندما كنا نتناول قطع الجاتوه والآيس كريم من محال البستاني الشهير، كما كانت سينما «بارك» من ضمن اهتماماتنا فكنا نذهب إليها أسبوعياً لكي نشاهد أفلامها الثلاثة.

ومن المواقف الطريفة يذكر لنا أحد أصدقائنا عن واقعة نادرة، فيقول: إنه في أحد أيام الصيف في إجازة المدارس الثانوية حيث كنا في تلك المرحلة، وقد تقابل معه أحد الجيران الذي كان يكبرنا سناً، وكان شخص يحب التفاخر وخياله بين السماء والأرض، لكنه كان طيب القلب جداً، وقال له إنه كان في وسط البلد (القاهرة الخديوية) واقتات جاتوه عند الأمير «يكن»، ويقص صديقنا العزيز ما حدث، وسأله من الأمير «يكن»؟

للأسف لا أحد يعرفه، فأعاد كلامه وسأل هل يوجد أحد لا يعرف الأمير «يكن»؟، فقال له صديقنا أنت تقصد الأمريكين، فقال: نعم، فضحك الجميع على الأمير «يكن».

وختاماً كم أنا سعيد عندما أتذكر بين الحين والآخر تلك الأيام الصبُوحة التي قضيناها مع الأصدقاء والأحباب في هذا الحي العريق الذي نشأنا فيه وعشنا وتربينا على المبادئ والقيم والمثل، هذا الحي بأزقته وشوارعه يمثل الحياة، هذا الحي لا ينسى... وكيف ينسى؟ وقد عشقناه، قلت للصديق العزيز ما أروع أن نتذكر تلك الأيام التي عشناها وعاشت معنا تحية وتقدير لك وتحية لهؤلاء الإخوة والأصدقاء جميعاً..... كان في هذا الزمن سلوك وقيم ومبادئ.

والسؤال هل من الممكن أن نعود إلى الوراء ؟ نعود لهذا الزمن الجميل....

ومن المؤسف قد ظهرت الورش الميكانيكية وغيرها وألغي الترام وافتقدناه كصديق للبيئة، فأصبح هذا الشارع لا يطاق من شدة الازدحام ليس ازدحام السكان بل ازدحام السيارات المكتظة في هذه الورش سالفة الذكر وكل صاحب محال أي محل يضع حجر أو بضعة أحجار أو مقعد ولا يسمح لأحد بأن يترك سيارته أمامه، بعد أن كان هذا الحي رمزاً للهدوء والرقي، وكانت تسكنه العديد من الجاليات الأجنبية.

هذا وجاء على هذا الحي طيب الأعراق أنام جدد من بيئات مختلفة ورحل معظم سكانه الأصليين عنه الذين كانوا يمثلون الطبقة المثقفة – المُهذبة – المتحضرة، فكانوا مثل أوركسترا يحوي مختلف الآلات الموسيقية التي تعزف نغمات متنوعة تسمو إلى الرفعة، لكن قد تبدل الحال بأنام لا يملكون سوى الأموال فقط ولا يعرفون العادات التي كانت سائدة في هذا الحي، هل تتخيل بأن هذا الشارع الذي يتراوح طوله ما بين أربعمائة وخمسمائة متر به عدد «ثمان» من الورش الميكانيكية أو أكثر، وعدد ست ورش كهربائي سيارات، ومحلات إكسسوار السيارات وقطع غيار السيارات الخردة والقديمة المستعملة، هذا كله بخلاف الورش المختلفة التي تتواجد بكثرة بين البيوت السكنية التي تختنق معها الشوارع والأزقة وتزاحم السكان وتقلق راحة النيام.

من الممكن أن يتحول هذا الحي العريق ليصبح مزار للسياحة الدينية، خاصة لوجود المعابد والكنائس والجوامع التي تحمل تاريخ طويل، وكذا مزاراً للسياحة الأثرية لتوافر المباني القديمة التي تتسم بالإبداع والجمال وعلى رأسها قصر السكاكيني باشا.

أتمنى في آخر هذه الكلمات أن يتم تطوير هذا الحي العريق للاستفادة منه مادياً ومعنوياً، أن يتم نقل الورش إلى المناطق الصناعية والحرفية فهي بالفعل نقلت قانونياً ولكن يا الله... للأسف لم تنقل فعلياً حتى وضع النقطة التالية بختام هذه الكلمات.

التاريخ والمكان
(علاقة تبادلية بين الإنسان والبيئة)

السلام هو علاقة إيجابية ومسالمة حتمية بين البشر والأرض:

عندما هبط آدم وحواء من السماء إلى الأرض، شهدت الأرض مولد التاريخ؛ لذا فإن التاريخ هو الذي يحدد العلاقة المتبادلة بين الإنسان والأرض، تلك العلاقة التي تقوم على التأثير والتأثر، وتفاعل بني البشر مع المكان وتأثير الأخير بالإنسان، وكتابة التاريخ تتطلب الحرية، ففكر الإنسان يُبنى عليها حتى تكون الكلمة صادقة حقيقية، فالتاريخ يُعد بمثابة الآباء والأجداد فيجب أن نكون أمناء من أجلهم، فمن الحقائق الثابتة العلاقة الوطيدة بل والحميمة بين التاريخ والمكان كالروح والجسد، فلولا المكان ما كان التاريخ، وكذا لا مكان بدون تاريخ، فالعلاقة الإنسانية المكانية علاقة حتمية وعملية تبادلية – علاقة تأثير وتأثر، فتفاعل الإنسان مع البيئة هي التي تُمكن المؤرخ من كتابة التاريخ وتدوين تلك العلاقة المتبادلة متى حيا الإنسان، وهي التي تمثل السلام بين الإنسان والبيئة.

إن عوامل البيئة لا تؤثر في الفرد وحاضره فقط بل تتراكم تأثيراتها عبر ميراث الأجيال، فالإنسان ميراثه الحضاري والروحي والثقافي لا يخضع للحاضر ومؤثراته فحسب بل هو أيضاً نتيجة الماضي، إن سلوك شعب ما وعقليته وثقافته وفكره هو نتيجة أساسية لمؤثرات ميراث آلاف السنين.

إن دور المكان في تحديد الثقافة البيئية لأي مجتمع أمر واضح، مثل الفروق الحياتية والثقافية والسلوكية والتربوية بين السكان الذين ينتمون لبيئات مختلفة صحراوية كانت أو ساحلية أو جبلية أو صناعية أو زراعية، أو الفروق بين سكان القرى والمدن، بل بين الأنماط المختلفة في المكان الواحد، وعلى هذا فإن المكان يلعب دوراً حاسماً في رسم حدود الغالبية العظمى من الأوطان وفصلها عن بعضها البعض، وإن المكان لا يفصل بلد عن آخر بل يمكنه أن يفصل مجموعات من البلدان، وعليه ليس المكان فقط هو الذي يحدد

الهوية البيئية أو الحدودية بين دولة وأخرى بل يمتد المكان لنطاق أشمل من ذلك وهو العلاقة التبادلية بين الإنسان والمكان، بمعنى عملية التأثير والتأثر بين الإنسان وبيئته.

علاقة التاريخ بالبيئة:

التاريخ هو أحداث وقعت منذ بداية الكون وعلاقات الإنسان بالكون وبيئته المحيطة به وتفاعله معها وتأثره وتأثيره بها، فالصلة وثيقة بين الإنسان والبيئة منذ بداية الخلق فكثير من المشكلات البيئية قد سببها الإنسان من الحروب وما تخلفه، وإهدار للموارد الطبيعية بسوء استخدام الإنسان لها وعدم استغلالها الاستغلال الأمثل، أننا لا نستطيع أن نتصور وجود الحدث التاريخي في فراغ بعيداً عن المكان والبيئة، فالتفاعل بين الناس والبيئة في إطار الظرف الزماني هو الذي ينتج لنا الظاهرة التاريخية في أي عصر من العصور، والذين يعملون بعلم التاريخ يلجئون إلى البحث والتنقيب عن المصادر الأصلية، بقصد الدراسة والنقد والمقارنة والتحليل والاستنتاج، فلذلك تعتبر البيئة معمل دراسة التاريخ، فيشير «بريان» Brian على أهمية ربط منهج التاريخ بالبحث العلمي التاريخي لكي نتمكن من حل المشكلات.

فالتاريخ هو دراسة الإنسان في المجتمع ماضيه وحاضره ومستقبله، وهو الذي يحدد الفروق بين الجماعات ووسائل تكيفها للبيئة الطبيعية وتكيف هذه البيئة لحاجاتها، وأساليب مواجهة الإنسان لمشكلات البيئة وأنماط علاقاته بغيره، ثم الحضارة والثقافة اللتين ابتكرهما الإنسان، كما أن التاريخ يوضح الجانب الإنساني في الإنسان وتبصره بالعلاقات التي يجب أن تسود في المجتمعات وتنظيمها والاتجاهات التي يجب أن تأخذها هذه المجتمعات في المستقبل وتنمية الجانب الروحي والإنساني في الناس وتزيد قدرتهم على التعامل مع الآخرين في جماعاتهم القريبة والبعيدة، والصلة بين النمو الإنساني والاجتماعي وبين التقدم في المادة والثروة هي صلة واضحة فالثروة والقوة في حاجة دائماً لما يحسن توجيهها ويقوم استخدامها، ويمكن التعرف على خصائص الطبيعة البشرية من خلال أفعال البشر أنفسهم، وهذه الأفعال كامنة في طيات أحداث التاريخ الإنساني، فما أكثر البلاد في عصرنا التي لا تنقصها الثروة ومع ذلك فهي فقيرة ومتخلفة بسبب انحراف مواطنيها عن اتجاه القيم والأخلاق واحترام القوانين.

والظاهرة التاريخية ترتكز على ثلاث دعائم هي الزمن والمكان والإنسان:

أولاً- البعد الزمني أو الزماني:

الزمن هو قاعدة العملية التاريخية، وهو الذي يجعل للحادثة التاريخية صفتها التاريخية، والزمن الذي نعنيه هو الزمن الإنساني، أي عمر الجنس البشري فوق كوكب الأرض، فلا توجد وقائع تاريخية أو حوادث تاريخية خارج نطاق الزمن، وتفسير الأحداث التاريخية يجب أن يكون بناء على العلاقة بين الأبعاد الثلاثة الزمان والمكان والإنسان وتأثير كل من الزمان والمكان في سلوك الإنسان وعلاقته مع الآخرين وتعامله مع الطبيعة.

والأحداث الهائلة عن أخبار الماضي لها أثر كبير في مسيرة التاريخ سلباً أو إيجاباً سواء تلك التي وقعت في الماضي البعيد واندثرت آثارها، أو تلك التي لا زالت بصماتها واضحة في الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية للمجتمع في الوقت الحاضر، فالتاريخ يحلل البعد الزماني للموقف الحاضر ويبين التراكمات الإنسانية والسياسية التي أدت إليه وعقدته وخلقت فيه مشكلة.

ثانياً- البعد المكاني أو البيئي:

تُعد البيئة هي الركن الثاني من أركان الظاهرة التاريخية، فالبيئة هي مسرح العملية التاريخية، وبقدر ما تقدمه من معطيات وما تطرحه من تحديات أمام الإنسان يتحدد شكل الظاهرة التاريخية، ودور الإنسان وتفاعله معها، ومنذ البدايات الأولى لعلم التاريخ أدرك المشتغلون به أهمية البيئة كعامل أساسي في تشكيل الفعل التاريخي فهيرودوت مثلاً حين تحدث عن مصر، يبدأ بوصف البيئة الطبيعية إلى الحديث عن شكل الأرض وتربتها ومساحتها، ثم يتطرق إلى الحديث عن شكل الحضارة المصرية فيتحدث عن الزراعة والنيل الذي أدرك أنه العامل الأول في تشكيل البيئة المصرية.

وعلم الجغرافيا يحلل البعد المكاني للموقف الاجتماعي فقلما توجد مشكلة اجتماعية إلا وللبيئة أثر فيها حتى الأحداث التاريخية الكبرى كانت أثراً لتغيرات حدثت في البيئة كهجرة المصريين القدامى من الصحراء الغربية وانهزام نابليون بونابرت في

روسيا، وهزيمة هتلر في نفس المكان، جميعها أحداث تاريخية وإنسانية ذات أثر عميق وكانت نتيجة أحوال جغرافية في البيئة، ويبرز دور المكان كعامل مهم في تشكيل الفعل التاريخي.

والبيئة كمسرح للعملية التاريخية لا تحتل مكانة كبيرة في التراث العربي قبل الإسلام، ومع ظهور الإسلام جاء القرآن بمفهوم جديد تماماً لدور البيئة أو المكان في قصة الإنسان في هذا العالم، فهي الإطار أو المحيط الذي يحيا فيه الإنسان، بكل ما يلزم من مقومات حياته، ويمارس فيه علاقاته مع إخوانه من بني البشر.

وذلك أن آيات القرآن الكريم جاءت تحمل مفهوماً للبيئة يقوم في أساسه على أمرين :

الأمر الأول أن الله قد خلق مظاهر الطبيعة التي يعيش الإنسان في رحابها لكي تكون وسيلة يتوسل بها الإنسان لمعرفة خالقه ومظاهر قدرته وآيات إبداعه ويحفل القرآن بالكثير من الآيات التي تدل على هذا ففي قوله تعالى ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ وفي مواضع أخرى كثيرة يشير القرآن إلى مظاهر الطبيعة والكون باعتبارها براهين على قدرة الله الذي خلقها ودليلاً على حكمته.

أما الأمر الثاني أن القرآن يشير إلى أن للطبيعة دوراً في صياغة التاريخ على أساس أن الله قد خلقها وسخرها لخدمة الإنسان ومساعدته في إعمار الأرض وتحقيق الغاية من حمل الإنسان للأمانة التي عرضها الله على السماوات والأرض والجبال فأشفق فيها، وحملها الإنسان، وعليه فالبيئة تكون للإنسان منزله الذي يعيش فيه والذي فيه مستقره ومقامه.

ويورد القرآن الكريم ما يؤكد ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾.[الأعراف – آية ٧٤].

يتضح مما سبق بأن العلاقة وثيقة بين التاريخ والمكان وتفاعل الإنسان بالبيئة وتأثيره وتأثره بها ودوره في الحفاظ على البيئة وعدم إهدار مواردها الطبيعية حتى لا تفنى تلك الموارد وأن علاقته بالمكان أي الجغرافيا تكشف عن مدى أهمية البيئة كمسرح للعملية التاريخية، وإذا كانت الجغرافيا تعني دراسة علاقات الإنسان ببيئته الطبيعية، فإن كل الجغرافيا هي إذن جغرافيا تاريخية بمعنى أن التاريخ هو منجم للجغرافيا ثري لا

ينضب، منه تستمد خامة ثمينة لا غنى عنها وهو معمل الجغرافيا يقدم تجارب الماضي، والواقع أنه لا جغرافيا بلا تاريخ.

ثالثاً- البعد الإنساني :

والدعامة الثالثة للظاهرة التاريخية هو الإنسان منفذ العملية التاريخية، فالتاريخ يؤكد على أن تجربة الإنسان تجربة فردية سواء على مستوى الفرد أم على مستوى الجماعة، وأن التاريخ يقدم لنا أسباب الظواهر الاجتماعية والاقتصادية والثقافية ونتائجها، ويوضح أن لا شيء صدفة، فمعرفة الماضي من خلال الدراسة التاريخية تساعده على فهم الطبيعة الإنسانية من خلال دراسة أفعال الإنسان وتصرفاته ومن ثم فإن معالجتنا لأمور الحاضر ومشكلاته ستكون معالجة أفضل، فالإنسان الذي يتمتع بمعرفة دقيقة لما حدث في الماضي يقترب أكثر من الفهم الكامل للطبيعة البشرية، وبالتالي فهو قادر على أن يتصرف بالحكمة والثقة النابعين من معرفة الحقائق، والتاريخ يساعدنا في البحث عن جذورنا وهويتنا ومعرفة أحداث الماضي والاستفادة منها من خلال معرفتنا بطبيعة الإنسان وعلاقاته في المجتمع الذي يعيش فيه.

ومن هنا ننظر للتاريخ بأبعاده الثلاثة البعد الزماني والمكاني والإنساني، فهذه النظرة توضح طبيعة التاريخ، حيث تفاعل الإنسان على مر العصور والأزمنة المختلفة بالبيئة التي وهبها الله للبشرية واستغلالها وهنا تتضح أهمية التربية البيئة لوعي الإنسان صغيراً كان أم كبيراً للحفاظ على بيئته وإكساب القيم والاتجاهات الإيجابية نحو البيئة.

كان «هيرودوت» جغرافياً قبل أن يكون مؤرخاً حين قال إن مصر هبة النيل ومن قبله بكثير كان قدماء المصريين يقولون إن الدلتا هي هبة النيل وهدية النهر، وعندما حكم محمد علي مصر عمل على إخراجها من العصور الوسطى إلى الحضارة الحديثة، بأساليبها في الحكم والإدارة والتشييد والبناء والحرب والدفاع والأخذ بأسباب العلم الحديث، ويقول «حمدان» بأن البيئة الفيضية كواحة صحراوية، معرضة لأطماع وغارات الرعاة البدو باستمرار، وهذا في حد ذاته يستدعي تنظيماً سياسياً قوياً متماسكاً في الداخل، ولقد رأينا كم هو حافل سجل الغزوات والغارات الرعوية على مصر طوال التاريخ، وكيف كان بقاؤها يتوقف على الدفاع الخارجي بقدر ما كان يتوقف على الضبط النهري

في الداخل، ولذا عمل «محمد علي» على وقف الرعي الجائر من البدو واستقرارهم كما حولهم إلى زراع مستقرين.

ولما كان نهر النيل يمثل شريان الحياة في مصر وكذلك ضياع كثير من مياه النهر عند مصبه في البحر المتوسط، فنجد محمد علي عمل على الاستفادة من هذه المياه الضائعة ببناء السدود والقناطر والترع وأهمها القناطر الخيرية، التي بدأ بناؤها في عام ١٨٤٣م، فكانت بذلك أول قناطر هندسية على النيل ومن أولى قناطر الري الحديث في العالم كله، وبذلك تحول الري من ري الحياض إلى الري الدائم، مما ساعد على زيادة الرقعة الزراعية وإثراء الإنتاج الزراعي.

وعندما تولى محمد علي مقاليد الأمور في مصر دخلت عهداً جديداً وشهدت البلاد برامج تنموية هائلة خاصة في المجال الزراعي حيث ساعد بناء القناطر الخيرية في تحويل جزء من أراضي الدلتا إلى نظام الري المستديم بالإضافة إلى حفر ثلاث وثلاثين ترعة وبخاصة ترعة المحمودية، وأقام خمسة عشر جسراً، وثلاثة وعشرين سداً فوق النيل، فاتسعت الرقعة الزراعية، ويضاف إلى ذلك عمليات الترميم وإصلاحات كثيرة والذي ساعد محمد علي في تحقيق ذلك هو البيئة الطبيعية وخاصة «المجتمع المائي» الذي تعتبر مصر أوضح وأقوى مثل له على مر عصور التاريخ.

وعليه يبرز دور الإنسان في استغلال الموارد البيئية الطبيعية استغلالاً إيجابياً كما فعل محمد علي وكان من نتيجته التنمية الزراعية التي حققها عن طريق الاستفادة الممكنة من مياه نهر النيل من إقامة القناطر و السدود والترع وغيرها.

والحقبة التاريخية المتمثلة في النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي وبالتحديد منذ اعتلاء محمد علي باشا حكم مصر عام ١٨٠٥م توضح مدى تأثر محمد علي بالبيئة الأوروبية التي نشأ بها، ورغم أن الدول الأوروبية آنذاك كانت شغلها الشاغل هو الصناعة نتيجة الثورة الصناعية التي صاحبها إنشاء العديد والعديد من المصانع، ونرى أنها ساعدت كثيراً في التقدم الصناعي والتكنولوجي فيما بعد، إلا أن هذه الدول قد أغفلت الجانب البيئي مما أثر على الحياة الإنسانية بصفة عامة والصحية بصفة خاصة، نرى محمد علي باشا باهتماماته الكبيرة في بناء مصر الحديثة ونظرته الثاقبة في أهمية تطوير البلاد في جميع المجالات الصناعية والزراعية والتجارية وغيرها كما سبق سالفاً، إلا أنه قد سبق هذه الدول الصناعية بل وسبق عصره أيضاً في مراعاة الأبعاد البيئية

التي سارت مع النهضة الحديثة في خطين متوازيين، أي أنه تمكن من تحقيق المعادلة الصعبة التي تحاول الدول المتقدمة قبل الدول النامية في تحقيقها الآن في القرن الحادي والعشرين وهي التوازن البيئي الذي حققه محمد علي باشا من خلال أفكاره التقدمية المستقبلية والتي سبقت عصره كما سبق سالفاً.

محمد علي بجانب مراعاته للأبعاد البيئية في كل الميادين فإنه اهتم أيضاً بالجوانب الجمالية في البيئة المصرية فكان شغوفاً ومولعاً بالجمال البيئي، ويقول الرحالة الفرنسي «أدمون بوتي»: من قصر الجوهرة، يمكننا الاستمتاع بمنظر جميل يمتد فوق المدينة، ويصل إلى ما وراء النيل والأهرامات، ومن ناحية جامع محمد علي نرى عبر حديقة رائعة، المآذن المشوقة التي تدعو الروح إلى التحليق في السماء، ولاهتمامه بالنواحي الجمالية فقد قام ببعض الأعمال التي ساعدت على تجميل البيئة المصرية ففي عام ١٨٢٩م أمر بإزالة الآكام الملاصقة للنيل شمال قصر العيني وكانت على مساحة تسعة أفدنه، وغرس محله أشجار الزيتون، وحول مناطق القمامة بعد إزالتها إلى متنزهات، وفي عام ١٨٣١م، أصدر قرار بتعمير أراضي الخرائب، وفي عام ١٨٣٥م أمر محمد علي بدهان الحوانيت وواجهات المنازل في القاهرة باللون الأبيض، وعام ١٨٤٣م أصدر أمراً بإنشاء مجلس للإشراف على تجميل القاهرة، وتعديل شوارعها وذلك لتحديث المدينة، وعام ١٨٤٦م قام بتوسيع بعض الشوارع وغرس الأشجار، وفي عام ١٨٤٧م عمل على تمهيد طريق متسع بين وسط القاهرة وشبرا وغرست على جانبيه الأشجار فكان من أجمل متنزهات القاهرة، وفي نفس العام تم تسمية الشوارع وترقيم المنازل، هذا وقد أنشأ محمد علي بستان الأزبكية وأزال التلال التي كانت متراكمة خارج منطقة باب الحديد وغرب القاهرة.

هذا وقد فطن محمد علي لأهمية النظافة على أساس أنها المؤشر الحقيقي لحضارة وتقدم الشعوب، فهي التي تعكس الوجه الحضاري للمجتمع ومدى تقدمه، ونحن نعلم أن التقدم والتطور يحتاج إلى التربية والتعليم، إذاً النظافة هي سلوك مكتسب نتعلمه نتيجة للتربية التي ننشأ ونتربى عليها وهذا ما اهتم به محمد علي باشا فقام بالتوجيه والإرشاد في هذا الصدد منها النظافة العامة في شوارع القاهرة وإنارة الشوارع وتوسعتها ولذلك قام ببعض الإجراءات في هذا المجال منها مد شبكة جيدة لمياه الشرب وإضاءة شوارع القاهرة بالأنوار الغازية والكشف عن منازل القاهرة لسلامة الناس، وفي عام

١٨٣٢م أصدر محمد علي أوامره بضرورة كنس ورش الشوارع وتنظيف الأسواق وإنارة شوارع المدينة، وإيقاد القناديل على أبواب المنازل، وأن يخصص لكل ثلاثة حوانيت قنديل.

وبما أن النظافة نتعلمها ونكتسبها من التربية فهي على المستوى العام إذا تم تطبيقها فإنها تبين مدى جمال وحضارة المظهر الطبيعي والبيئي للبلد، ومن هنا يأتي دور التربية البيئية في تنمية سلوك النظافة، فالنظافة تعتبر سلوك من السلوكيات التي يجب أن يتم التأكيد عليها للوصول إلى الرقي، وهذا السلوك يجب أن نزرعه في عقل المجتمع بكافة أعماره وفئاته، فعندما يكون المجتمع نظيف يعني أننا نعيش في بيئة نظيفة، وأننا نهتم بالنظافة، ولكن يجب أن نسعى إلى تعزيز هذا الاهتمام، ومن هنا يبرز دور المؤسسات المختصة في هذا الموضوع للتركيز على أهمية التربية البيئية في تطوير السلوكيات البيئية وضمنها النظافة والتي قد نعتبرها مجرد سلوك بسيط ولكنه بالأساس هو سلوك إذا ما اتبعه كل فرد من أفراد المجتمع بصفة شخصية أو عامة فإنه يساهم في تحقيق النظافة وهذا ما اهتم به محمد علي منذ قرنين من الزمن فأنه طبق التربية البيئية بمفهومها دون تداول لفظها، لذا تلعب التربية البيئية دور كبير في هذه السلوكيات البسيطة والتي تساهم في جعل النظافة عادة وسلوكاً يومياً، والسلوك اليومي هو عادة متبعة يتم تطبيقها في البيت والشارع، والحدائق والمتنزهات والأماكن العامة وفي جميع مرافق الحياة.

وأن النظافة ليست مجرد مصطلح يتم حصره في عدة كلمات وإنما هي مفهوم كبير يندرج منه سلوكيات لها تأثير عظيم على المجتمع والبيئة، وإذا تم إكساب هذه السلوكيات بشكل جدي تظهر مدى رقي المجتمع، أما إذا أهملت فإنه ينتج عنها مشاكل بيئية وصحية كبيرة وتظهر مدى عدم قابلية المجتمع للتطور والوصول للحضارة، ونحن الآن في القرن الحادي والعشرين يجب علينا أن نعمل من أجل المستقبل من خلال تنمية قيم بيئية توجه هذه السلوكيات وأن نستفيد بالوسائل الحديثة والتكنولوجية المتطورة والتي سبقتنا إليها في الوقت الراهن العديد من الدول، وبالإضافة لذلك يجب إصدار تشريعات صارمة تجاه البيئة لحمايتها من أي تلوث مثلما فعل ذلك محمد علي باشا في القرن التاسع عشر الميلادي حينما أصر قوانين بهذا الصدد لحماية البيئة من التلوث وحماية الأهالي من الأمراض.

وبناء على ما سبق نجد أن هناك علاقة وثيقة بين التاريخ والمكان من خلال تفاعل الإنسان مع بيئته واستخدامه لمواردها الطبيعية وتطويرها على مر العصور وما ينتج من تفاعل الإنسان بالسلب والإيجاب مع البيئة أي علاقة تبادلية بين الإنسان والبيئة، ويمكن القول بأن دراسة التاريخ تساهم في غرز القيم البيئية ومن ثم حل المشكلات البيئية التي تهدد حياة الإنسان على الأرض وأنشطته الإنمائية عن طريق العلاقات التي تربط الإنسان ببيئته، وتساعده على التعرف على تلك المشكلات وتلافيها وحلها إذا واجهته.

المراجع

أولاً- المراجع العربية:

- سورة الأعراف، الآية ٧٤
- سورة الحج، الآية ٢٦
- إبراهيم العيسوي، عمر الفاروق أمين: حوار حول الرؤية المستقبلية للتنمية في مصر، «مشاكل البطالة وإعادة التأهيل وفرص تشغيل الشباب» (نظرة مستقبلية)، سلسلة ندوات ٢٠٠١م – ٢٠٠٢م، الحلقة الخامسة (٢٢-١-٢٠٠٢م)، معهد التخطيط القومي، ٢٠٠٢م.
- أبو الفتوح رضوان وفتحي مبارك: المواد الاجتماعية في التعليم العام، دار المعارف، ١٩٨٧م.
- أنور عبد الملك، ترجمة حماده إبراهيم : نهضة مصر (تكون الفكر والأيديولوجية في نهضة مصر) ١٨٠٥م – ١٨٩٢م، الهيئة المصرية للكتاب، ٢٠٠١م.

باقر النجار: العولمة، المجموعات الضعيفة والإقصاء الاجتماعي في المنطقة العربية، ورقة عمل حول «تأثير العولمة على الوضع الاجتماعي في المنطقة العربية»، بيروت، ١٩-٢١، ٢٠٠٥م.

- بدوي جمال: مصر من نافذة التاريخ، (كان وأخواتها)، دار الشروق، ١٩٩٤م.
- توفيق حبيب: الفجالة قديماً وحديثاً، مؤسسة هنداوي، ٢٠١٦م.
- جمال حماد: المعارك المصرية على الجبهة المصرية، حرب أكتوبر ١٩٧٣م، دار الشروق.
- جمال حماد: أسرار ثورة ٢٣ يوليو، الناشر الزهراء للإعلام العربي، ٢٠٠٥م.
- جمال حمدان: شخصية مصر، دراسة في عبقرية المكان، شخصية مصر الطبيعية،ج١، دار الهلال، القاهرة، ١٩٩٤م.
- جمال حمدان: دراسة في عبقرية المكان، شخصية مصر الاقتصادية، ج ٣، دار الهلال، القاهرة، ١٩٩٤م.
- جمال حمدان: شخصية مصر، دراسة في عبقرية المكان، شخصية مصر البشرية ج٢، دار الهلال، القاهرة، ١٩٩٤م.

– جيلبرت سينويه: ترجمة عبد السلام المودني: «الفرعون الأخير محمد علي»، منشورات الجمل، ٢٠١٢م.
– خالد بن محمد القاسمي: إدارة البيئة في دولة قطر، دار الحداثة، بيروت، ١٩٨٨م.
– داوود بركات: السودان المصري ومطابع السياسة البريطانية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٢م.
– زينب محمد فريد: دراسات في التربية، الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٢م.
– سيد علي شهدة: السكان، مرجع في التربية البيئية للتعليم النظامي وغير النظامي، مشروع التدريب والوعي البيئي دانيدا، جهاز شئون البيئة، ١٩٩٩م.
– شحاته عيسى إبراهيم: القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، عام ٢٠٠١م.
– عبد الرحمن الرافعي: «فتح السودان». تاريخ الحركة القومية، وتطور نظام الحكم، ج٣ عصر محمد علي، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠م.
– عبد الرحمن حسن الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، دار لكتب والوثائق القومية، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر ج٤، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة، ١٩٩٨م.
– عبد الرحمن زكي: التاريخ الحربي لعصر محمد علي الكبير، دار المعارف، عام ١٩٥٠م.
– عبد اللطيف بغدادي: مذكرات عبد اللطيف بغدادي، ١– ٢، دار النشر، المكتب المصري الحديث.
– عبد الرؤوف أحمد الضبع: الأحياء العشوائية وخصائص سكانها، «دراسة ميدانية على منطقة المعصرة بحلوان» المجلة المصرية للتنمية والتخطيط، معهد التخطيط القومي، المجلد الخامس، العدد الثاني، ديسمبر ١٩٩٧م.
– عبد الله العلي النعيم: الأحياء العشوائية وانعكاساتها الأمنية ندوة (الانعكاسات الأمنية وقضايا السكان والتنمية)، القاهرة – ٢٢/ ١٢/ ٢٠٠٤م
– عصام الدين محمد علي: «التضخم العمراني في مصر ومعوقات الجذب السكاني في المدن الحضرية الصحراوية الجديدة»، مؤتمر الانفجار السكاني في المدن العربية وتحديات القرن الواحد والعشرين، المعهد العربي لإنماء المدن، الكويت، ٢٤ – ٢٦ أبريل ٢٠٠٠م.
– عزيز خانكي: الذكرى المئوية لواقعة نزييب، ٢٤ يونيو ١٩٣٩م – ٢٤ يونيو ١٩٣٩م، الناشر مؤسسة هنداوي، ٢٠٢١م.

– علي مبارك: الخطط التوفيقية، ج٥، ط١، المطبعة الكبرى، الأميرية ببولاق مصر المحمية، سنة ١٣٠٥هـ.
– عماد رمضان سليمان: «فعالية تضمين البعد البيئي في مقرر الدراسات الاجتماعية على التحصيل وتنمية الاتجاهات البيئية لدى تلاميذ الصف الثالث الإعدادي، رسالة ماجستير غير منشورة، معهد الدراسات والبحوث البيئية، جامعة عين شمس، ٢٠٠٢م.
– فاضل خليل إبراهيم: معايير وأساليب تنظيم محتوى المقرر والكتاب المدرسي في مادة التاريخ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، المجلة العربية للتربية، المجلد ١٤، العدد ٢، ١٩٩٤م.
– فردوس أحمد: أهمية أدب الرحلات من الناحية الأدبية، مجلة اللغة العربية، ٢٠١٦م.
– قاسم عبده قاسم: الرؤية الحضارية للتاريخ، قراءة في التراث التاريخي العربي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥م.
– قاسم عبده قاسم: تطور منهج البحث في الدراسات التاريخية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ٢٠٠١م.
– كريستينا برغمان: «من السكن العشوائي إلى أحياء سكنية، ترجمة حسن حسين، ٢٠٠٨م
– محمد المالك خلف التميمي: دراسة في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، مجلة العلوم الاجتماعية، العدد الثاني، ١٩٨١م.
– محمد حسام الدين إسماعيل: مدينة القاهرة، من ولاية محمد علي إلى إسماعيل، ١٨٠٥م – ١٨٧٩م، دار الآفاق العربية، ١٩٩٧م.
– محسن محمد: «مصر والسودان» الانفصال، بالوثائق السرية البريطانية والأمريكية، ط١، دار الشروق، ١٩٩٤م.
– محمود شاكر: مواطن الشعوب الإسلامية ١١، السودان، ط٢، المكتب الإسلامي بيروت، دمشق، ١٩٨١م.
– مس[illegible] هجر[illegible]
– نادية فرح: السكان والتنمية في مصر، النمو السكاني والسياسة السكانية، سلسلة [illegible]

□ نشرة شهرية جامعة لبيانات السكان مأخوذة من السجلات المدنية

□ نشرة شهرية تبين السكان لبعض المحافظات

ثانياً- مواقع الانترنت:

https://www.capmas.gov.eg/
www.msrintranet.gov

□ في حالة عدم حاجة عبد الله إلى نسخة من البيان

محافظة فيوم عن مقابل بيان ما

□ لائحة نسخ محافظة ستاب مقابل بيان ما

ثالثاً- الدوريات:

□ نظام الإبلاغ عن ظاهرة السكان في الدول النامية –

تاريخها السابق

□ لائحة لاستخدام السكان لتنفيذ السكان

□ برنامج من تحت الإبلاغ عن الوفيات في الدول النامية

برنامج (الإبلاغ عن من تحت تبين تنفيذ السكان

الإبلاغ

□ تبين لتنفيذ البيانات السكان

سجلات مركز الدراسات الشرقية، المسلمين في دير الفرنسيسكان بالموسكي، القاهرة.

الحوليات:

□ جريدة الأهرام – عدد

□ جريدة الشرق السابق

□ جريدة خبر السابق

□ جريدة لتنفيذ السابق

□ باب ستجد لقب مجد السكان – –

جريدة الأهرام من يتعلق الحق في جريدة الأهرام

٣ سبتمبر ١٨٧٦م الجمعة ١٩من ذي القعدة ١٤٤١ هـ ١٠ يوليو ٢٠٢٠ السنة ١٤٤ العدد ٤٨٧٩٤.

جريدة الأهرام: مشاكل الإسكان التعاوني تبحث عن حلول مشروع قانون جديد يتلافي ازدواجية الرقابة، الإثنين، ٩ أغسطس ٢٠٠٤م، السنة ١٢٧، العدد ٤٢٩٨٠.

جريدة اليوم السابع: زيارة السيسي التاريخية لجنوب السودان، ٢٨ نوفمبر عام ٢٠٢٠م.

جريدة [illegible] – [illegible]

جريدة الشرق الأوسط: العدد ١٠٦٣٠، السبت ٥ –١ – ٢٠٠٨م.

[illegible]

فاروق شرف: جريدة أبو الهول السياحية، العدد الأول، ٦ / ٢٠١٩م.

نعمان الزياتي: مصير العاصمة في أيدي المخططين وليس المستثمرين، الأهرام الاقتصادي، السنة ١٢٦، العدد ٢٠١٩، ٢٤ – ٩ – ٢٠٠٧م.

ثانياً- المراجع الأجنبية:

– Barton, Keith: «History is about people .Elementary students», Understanding of History . Paper Presented at the Annual Meeting of the National Council for Social Studies 1994 .

–Linda Oldham & others «: informal communities in Cairo» the American university in Cairo press, the basis of a typology, V١٠, N ,1987 ,٤pp 45–51.

– United Nations Development Program me, Undp Arab States, 2008.

– Trask, David : Teaching History in Historical Times : A side Stage ApproachTeaching History . A. Journal of Methods . 1996 .

– Turner , Brian , Kearns , Judith : «Writing and Reading History» : Teaching Narrative in a Linked Writing Course «, Journal – of – Teaching – Writing 1996.

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
إهداء	٣
المقدمة: كلام من هنا وهناك	٥
بلاد السودان (كانت وذهبت)	١٣
عالم لا ينسى– عبد الوهاب المسيري	٢٧
ست الدار (كانت وأصبحت)	٣٣
كان جار لنا «شهيد صلاح حواش»	٣٩
الجردل وعربة الفول	٤٩
حتى لا ننسى اليوم الأسود «الدولة الافتراضية»	٥٥
رحلوا فداء للوطن	٦٣
ملحمة ٢٥ يناير ١٩٥٢م التاريخية	٧٥
كانت هناك «المجاعة العظمى في الهند»	٨٧
هناك فرق	٩٧
سُكنى المقابر «ظاهرة تنفرد بها مصر على المستوى العالمي»	١٠٩
السكاكيني بين الماضي والحاضر	١٢٣
التاريخ والمكان (علاقة تبادلية بين الإنسان والبيئة)	١٤١
المراجع	١٥١

طبع بمطابع دار المعارف